

أ.د. عماد الدين خليل

أحاديث نبوية تطل على العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَحَادِيثُ نَبَوِيَّةِ تَطَلُّعِ عَلَى الْعَصْرِ

أ.د. عماد الدين خليل

تقديم

وأى واحد من أحاديثك الشريفة لا يطل على العصر يا رسول الله ؟ إنها برؤيتها النبوية الثاقبة تجتاز الأماكن والعصور لكي تطل بتعاليمها التي تعرف كيف تتعامل مع الإنسان وكيف تبنيه ، على كل زمن وكل مكان ... ويخساً أولئك الذين يسمون أنفسهم (بالتاريخانيين) الذين يسعون إلى اعتقال كلمات الله وتعاليم رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) في حيز التاريخ !!
فها هي ذي أحاديثك تقطع ألسنتهم وتمضي لكي تدل الحيارى والضائعين على الصراط ، الذي تتفرق دونه ، وتميل ، وتعوج ، وتتساقط السبل البشرية الضالة التي هي التي أسرت نفسها في حيز الزمن والمكان ... أي في الجغرافيا والتاريخ ... ومضى التاريخ ، بإرادة الله سبحانه وتعالى ، لكي يطوي كل أضاليلهم رافعاً شعار : ﴿ ... وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... ﴾ (سورة آل عمران : الآية ١٤٠).

هذه جملة من الأحاديث النبوية الموثقة ، كما أخرجها المحدث الكبير (البخاري) في صحيحه ... اختيرت من بين العشرات والمئات والألوف لكي تؤكد هذا الذي ذهبنا إليه ... إنها خطاب مؤثر موجه للإنسان في كل زمن ومكان ، من أجل أن يفيئ إلى خيمة الله ، ويحيا الحياة المتوازنة السعيدة ، المتوحدة ، التي أرادها له هذا الدين ، والتي بدونها لن تكون سوى التعاسة والنكد والتمزق والشقاء : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴿ قَالَ كَذَلِكَ آيَاتُنَا فَنَسِيهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿ (سورة طه : الآيات ١٢٤-١٢٧).

وها هو منطق الإحصائيات يحكي في القرن الحادي والعشرين عما يشهده القوم هناك ، ممن رفضوا الايمان بالله ، من ضيق ونكد وتعاسة وفرار إلى المغيبات ... والانتحار ... فثمة إحصائية تقول أن عشرة بالمائة من الشعب الأمريكي تعاني من الاكتئاب وتهرب منه إلى المغيبات والانتحار ... وأن اليابان خصصت ثلاثين مليار دولار عام (٢٠١١م) لملاحقة حالات الاكتئاب المركز والانتحار في الساحة اليابانية ... ومعروف للجميع مدى تقدم دولة كالسويد على المستوى المدني وكيف أن ذلك جاء متزامناً مع تزايد حالات الانتحار في ديارها بشكل قياسي.

يجب ألا يخدعنا ... ويعتّم علينا الرؤية الصائبة ، هذا الديكور الخارجي الجميل من العمران المادي والخدمات المدهشة ، والتقدم العلمي في كل مجالات الحياة ... إلا في المجال الأساسي ... المجال القاعدة الذي تبنى عليه سعادة الإنسان أو تعاسته وشقائه : التقدم الروحي ... فها هنا يغيب هذا البعد لكي لا يتبقى ثمة إلا القشور ، ولا يحكم سلوك الإنسان إلا الشيطان الذي طالما حذرتنا منه كلمات الله ورسوله : ﴿ **الْمَ أَعْهَدُ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ؟ ﴿٦٢﴾** (سورة ياسين : الآيات ٦٠-٦٢).

وها هو الفساد الكبير الذي يعم كرتنا الأرضية من أقصاها إلى أقصاها بسبب حكم الشيطان : فساد في الأخلاق ... فساد في العلاقات ... فساد في الاقتصاد ... فساد في السياسة ... فساد في التربية ... فساد في المناخ ... تلوث بيئي يؤذن بعد قرن أو قرنين ، ربما ، بدمار الحياة البشرية ، واختناقها ، واستحالة استمرارها بكل المعايير : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾** (سورة الروم : الآية ٤١).

ها نحن إذاً وقد اخترنا عدداً محدوداً من أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نجد أنفسنا قبالة الحياة التي جاء هذا المبعوث النبوي الأخير لكي يبينها ، ويدعونا جيلاً بعد جيل إلى بنائها والتشبث بمفاهيمها وقيمها ... وإلا فهو الضياع ... وهو تحوّلنا - كما نشهد عبر القرون الأخيرة - إلى قصعة يولم عليها المولمون من الشرق والغرب ... ومن كل مكان ... رحلة طيبة مع أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يحكي عن الدين الواحد ، وعن حماية دم الآخر ، عن المجتمع السعيد ، عن النبيّ الإنسان ، عن التيسير والحنفية السمحاء التي ترفض الغلو والتشدد ... عن السخاء الإلهي والرحمة والتوحيد والشفاعة ... عن احترام إنسانية الإنسان وحمايته ... عن نبض الحياة ، عن العلاقات الأسرية الحميمة ... عن الرفق بالحيوان ... عن (الاتيكيت) في تناول الطعام ... عن الحرب على الوثنية والكفاح ضد الظلم ... عن أداة الشيطان ... عن السماحة في التعامل بين الناس ... عن الوسواس التي تحيك في الصدور ... عن تحفيز العقل ودعوته للعمل في قلب الأرض ... عن الطب النفسي وإحياء القلوب ... عن الدعوة للحذر ... عن الحرب على الخرافة والتزييف والتقليد الأعمى ... عن الأسلوب المرن في التعامل التربوي ... عن لعنة الكذب على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ... عن الموازنات الإلهية ... عن مجابهة الإغراء ... عن المخنثين والمترجلات ...

عن دين المحبة ... عن الكرم الإلهي ... عن دين التناسح ... عن تفاهة الحياة الدنيا وانصرامها السريع ... عن إخوة الإنسان للإنسان بغض النظر عن انتمائه الديني ... عن الثورة على الطواغيت والأرباب ... عن حماية الطفولة ... عن الرؤية الثاقبة للحياة الدنيا ... عن التكافل الاجتماعي ... عن تلبيس الشيطان ومكره ... عن الكلمة الطيبة ... عن الانتحار وهدر الحياة ... عن مسؤولية الأسرة إزاء الأبناء ... عن الصداقة الحميمة بين الإنسان والعالم والكون ... عن معجزة القرآن ... عن تصاغر الحياة الدنيا وخرافة البقاء ... عن التحذير من التفكير في ذات الله والمضي في التفكير في آلائه ... عن تجاوز المرحلي العابر إلى الممتد البعيد ... عن مجابهة (الأنا) ... عن اغتنام الفرص العابرة قبل فوات الأوان ... عن تجاوز الخندق الذي يفصل بين العقل والقلب والممارسة ... عن مداد العلماء الذي يوزن يوم القيامة بدم الشهداء ... عن الفرص المفتوحة حتى للخدم والعبيد ... عن الوفاق بين التعليم والتجربة ... عن الرؤية الشمولية التي تلمّ الوجهين معاً : المغيب والمنظور ، والأخلاقي والمصلحي ... عن ضرورة المشاركة في تشييع الجنائز وزيارة القبور ... عن دور الأخلاق في النهوض والانقياد ... عن الإنسان في قوته وضعفه ...

إنها والحق يقال رحلة طيبة في ظلال كلمات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتعاليمه التي - مرة ثانية وثالثة وعاشرة - تخترق حدود الجغرافيا والتاريخ لكي تتعامل مع كل زمن وكل مكان ...

ومن الله (سبحانه وتعالى) وحده التوفيق

الموصل في ٧/٥/٢٠١٦م

أ.د. عماد الدين خليل

الدين الواحد

(عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : أنا أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة ، والأنبياء اخوة ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد) .
وإلى أن ينفخ في الصور ... وعلى مدى تقلبات التاريخ ... ورغم كل السدود الخبيثة التي يسعى إلى وضعها محترفو الأديان لتحقيق مصلحة أو الاستئثار بمكسب ... سيظل دين الله واحداً ... وسيظل الأنبياء كافة اخوة ... وسيظل محمد بن عبد الله أحاً لعيسى بن مريم ... يتغاير الآباء والأمهات ، ويبقى الدين واحداً ... مصدره واحد هو الله سبحانه وتعالى ، جل في علاه ، وهدفه واحد هو شهادة (لا إله إلا الله) ، وقيادة البشرية عبر الصراط الذي تميل دونه السبل ، وتعوج ، وتتفرق ... ويظل هو وحده القدير على منح الإنسان توحده المرتجى ، وتوازنه المأمول ، وسعادته الحقيقية التي ضيعتها الأديان المحرفة ، والعقائد الباطلة ، والخرافات والأضاليل ...
ها هنا يؤكد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة ... وكأنه يرى بثاقب رؤيته ما تعرضت وستعرض له (النصرانية) ومؤسسها عيسى (عليه السلام) من تزيف وتحريف ... حيث أمطرت الخرافات والأساطير والضلالات على (إنجيله) الأصيل ، عبر جملة من الأناجيل المصطنعة التي دسها عليه كبار أتباعه بعد مرور عشرات السنين على نبوته ، فجعلوا فيها الأبيض أسوداً ، والمستقيم معوجاً ... والدعوة النقية الواضحة شبكة من التعقيدات والأغاميز والألغاز والطقوس المصطنعة التي ما أنزل الله بها من سلطان .

إنجيل بولس ... إنجيل متي ... إنجيل يوحنا ... إنجيل مرقس تحلّ بادعاءات الوضاعين من مزوري الأديان ، محل إنجيل النصرانية الأصيل الذي طالما أكد على مجيئ النبي الأخير : محمد بن عبد الله ، لكي يتم البناء ويضع لمساته الأخيرة ... ومن أجل تأكيد هذا التزييف الخطير للعقيدة النصرانية الأصيلية ، والقائمة على التوحيد الذي هو قاعدة كل الأديان القادمة من السماء ، أصدر بابا الفاتيكان ومن ورائه المجمع الكنسية أمراً بإعدام الإنجيل الوحيد الذي يتحدث بالحق ويقول كلمته واضحة صريحة بخصوص وحدة الأديان ، ومجيئ فاتحها محمد بن عبد الله ، في عشرات المواضع : إنجيل برنابا !!

ومع ذلك فقد أفلتت من قبضة الوضاعين جملة من التأكيدات على هذه الحقيقة ، فتسربت رغماً عنهم ، إلى شرايين الأناجيل الأربعة وتموضعت هناك ... يقول عيسى (عليه السلام) في إنجيل يوحنا : (26-23:15) ... لا بد أن تتم الكلمة التي في الناموس ... انهم ابغضوني

مجاناً فلو قد جاء المنحمننا هذا الذي يرسله الله إليكم . فهو شهيد علي وأنتم أيضاً . لأنكم قديماً كنتم معي . في هذا قلت لكم لكيما تشكوا) . والمنحمننا بالسريانية تعني محمداً .

وجاء في إنجيل متي : (43-42:21) : (الحجر الذي رفضه البنائون قد صار رأس الزاوية ، من قبل الرب كان هذا ، وهو عجيب في أعيننا ، كذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره) . وجاء في إنجيل يوحنا : (13-12:16) قال المسيح للحواريين : إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون الآن أن تحتملوا ، وأما متى جاء ذلك ، روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم عن نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمر آتية) .

ولطالما أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة وقال بأن أهل الكتاب المحرفين ، يعرفون رغم ذلك ، هذه الحقيقة التي لا مرء فيها : ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأخير آت لكي يتم البناء ويمضي في طريق النبوات إلى غايته الأخيرة : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة : الآية ١٤٦) ، ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (سورة الصف : الآية ٦) .

ومع ذلك كله فانهم يصرون على موقفهم الخاطئ هذا ... ذلك أنهم أبناء أولئك التحريفيين الكبار الذين بدأوا المهمة الباطلة بوضعهم الأناجيل الأربعة وتلفيقها على لسان المسيح (عليه السلام) .

إن هذا الالتواء النفسي يذكرني بموقف زعيم إحدى الكنائس في الموصل قبل عدة عقود ، عندما اختار اتباعه أن يضعوا في أعلى كنيسة جديدة لهم الآية الكريمة التي تمجد أم المسيح مريم (عليهما السلام) : ﴿ ... يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة آل عمران : الآية ٤٢) ، فما كان منه وقد انتابته موجة من الغضب إلا أن يأمر بإزالتها !!

ويدهش الإنسان لما يقول المستشرق الفرنسي المعروف (اميل درمنغم) في كتابه عن (حياة محمد) كيف يعلن النصارى الحرب والكرهية ضد إخوانهم المسلمين الذي يرفع كتابهم هذا التقييم لأم نبيهم ، وكيف يناحزون - بالمقابل - إلى خصومهم اليهود الذين دمغوا في عهدهم

القديم مريم بأقصى درجات سوء ... سوى أنه التقليد الملتوي القادم من عصور الآباء الكبار
واضعي الأناجيل المحرفة ، ومصدري حكم الإعدام على إنجيل برنابا الأصيل ...
وتبرز من وراء هذا الركام من الأباطيل والالتواءات كلمات رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) من أنه أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة ، وأن الأنبياء اخوة ، أمهاتهم شتى
ودينهم واحد ... قنديلاً أخضر ينير السبيل للمدلجين في الظلمات ...

دم الآخر ... !!

(عن عبد الله بن عمرو عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وان ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً) !
وحشود أخرى من أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تؤكد المعنى نفسه : (من أذى ذمياً فقد آذاني) (أوصيكم بأهل ذمتي) ... و ... و ...
ها هنا يحذر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من القتل المجاني الذي استشرى في زمننا البئس هذا ، ويعلن حرمان ممارسيه من رائحة الجنة التي تنتشر عبر مسافات يصعب حسابها على الحاسيين.

إنه الاحترام المطلق لإنسانية الإنسان ، معاهداً كان أم ذمياً ، والتنديد الصارم بقتله ، أو انتهاك حرمة ، أو التعدي على حرمانه.

وان العهود التي منحها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لليهود والنصارى في جزيرة العرب وأطرافها لتؤكد المعنى نفسه بفضائها المفتوح ، ونبضها الإنساني ، وسعيها المكافح لحماية دم غير المسلم أن يسفك عبثاً !! " ... ولنصارى نجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم ، وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم ، لا يغيروا أسقفاً عن أسقفيته ولا راهباً عن رهبانيته ولا واقفاً عن وقفانيته ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ... ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ... ولا يؤاخذ أحد منهم بظلم آخر. وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبي (صلى الله عليه وسلم) أبداً حتى يأتي الله بأمره إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم "!

وبعث إلى يهود بني جنبة بمقنا القريبة من ايلة على خليج العقبة : (أما بعد فقد نزل علي رسلكم راجعين إلى قريبتكم ، فإذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وان رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم لا ظلم عليكم ولا عدى ، وان رسول الله جاركم مما منع منه نفسه ... وان عليكم ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروككم (مراكبكم) وربع ما اغتزل نساؤكم ، وانكم برئتم - بعد - من كل جزية أو سخرة. فان سمعتم وأطعتم فان على رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ... وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله ...) . وكتب ليهود بني غاديا (... إن لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عداء) . وكتب ليهود أهل جرباء وأذرح : (أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين) ...

نقارن هذا بموقف أدعياء الحرية ، والديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، وملاحقة الإرهاب ، من غير المسلمين عبر التاريخ البشري كلّه ... ونحن نتذكر ما فعلوه بالدم الإنساني من هدر عام ، وقتل بالجملة ، وتصفية شاملة يختلط في عنفوانها الوحشي أولئك الذين يستحقون القتل وغيرهم ممن لا يستحقون ...

نتذكر مجازر الكنيسة الإسبانية ضد مسلمي الأندلس المهزومين حيث أتت على ما يزيد على المليون مسلم قتلاً وتنصيراً وتهجيراً من الأرض ... ونتذكر ما فعله الاستعمار القديم بشعوب العالم الإسلامي من قتل ملايين الناس دفاعاً عن استلابهم للأرض واغتصابهم خيراتها ... ونتذكر عمليات الترحيل الجماعي الرهيب للعبيد الأفارقة إلى الأمريكيتين ، وسط ظروف يعجز القلم عن التعبير عنها ، فيما أتى على مئات الآلاف منهم بالموت المحقق ، حتى قبل وصولهم إلى الدنيا الجديدة ، وفيما حدثنا عنه (اليكس هيلي) في كتابه المعروف (جذور) ... ونتذكر ما فعله غزاة أمريكا الأوائل من تصفيتهم الجسدية بالقتل والتسميم لمائة وعشرين مليوناً من مواطنيها الأصليين من الهنود الحمر ...

بل اننا نتذكر ، قبل هذا وذاك ، ما فعلته ولا تزال أمريكا ، سيدة حقوق الإنسان في هذا العالم ، مع الشعوب المستضعفة التي ابتليت بويلاتها : في اليابان وكوريا وفيتنام أو دول أمريكا اللاتينية ، وفي الصومال وأفغانستان والعراق ... وهذه الأخيرة التي تلقت عبر حرب (٢٠٠٣) (التحريرية) !! ثمانين ألف طن من اليورانيوم المخضب الذي لا تزال ذراري العراقيين تتن من ويلاته ، فيموت منهم عشرات الآلاف في كل عام ...

فمن الذي ضمن الدم البشري من الهدر ؟ نحن أم هم ؟ ومن الذي انتهك إنسانية الإنسان على مدى التاريخ البشري : نحن أم هم ؟
الويل للويل لمن يقول بعد هذا كلّه ان الغربيين هم رعاة حقوق الإنسان وحماة الدم البشري من الهدر أولئك الذين يسقطون مصائبهم على الشعوب المستضعفة ويتهمونها بالإرهاب واغتيال حقوق الإنسان ...

فها هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في جملة أخرى من الأحاديث الشريفة يؤكد المعنى نفسه : احترام الدم البشري من السفك ، والتتديد بكل من تسوّل له نفسه العبث بحرمة (فعن ابن عمر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً) (وعن عبد الله عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : أول ما يقضى بين الناس في الدماء) .

ويبلغ الأمر من احترام إنسانية الإنسان ، أيّاً كان موقعه من العقائد والأديان أن يصدر النبي (صلى الله عليه وسلم) أمره باجتئاب الوجه في القتال بين المسلم وخصومه (فعن أبي

هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه) ... فأى تقدير هذا لإنسانية الإنسان على إطلاقه ، وأي فارق شاسع بين هذا الأسلوب العالي الشفاف في التعامل مع الآخر وبين الأسلوب الغربي والأمريكي (المتحضر) الذي يخط العظم باللحم ، والوجه بالأقدام ، وهو يضرب خصومه بأقصى درجات الوحشية واللامبالاة؟! تحت هذه المظلة المتحكمة في حماية الدم البشري من الهدر المجاني ، وقبالة القتل اليومي لملايين الناس بأكثر الأساليب همجية ووحشية على يد أذعياء ملاحقة الإرهاب في العالم ... يجد المرء نفسه قبالة فارق كبير وبون شاسع ، بين تعاليم السماء إلى الأرض وبين طواغيت الأرض وأربابها الزائفين ...

فمن الذي يحمي الدم البشري من الهدر ... نحن أم هم؟!

النبي الإنسان

(عن عمر (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) !!
يا الله ... ألى هذا الحدّ يا رسول الله يكون تخوّفك من الإطراء ، وتأكيد عبوديتك المطلقة لله ؟! أي تجرّد هذا عن أعلى صنوف الإغراء الذي يأخذ بخناق الزعماء (الكبار) في هذا العالم ، فيميزهم عن الآخرين ، ويرفعهم درجات يستعصي حسابها على الحاسبين ؟!
ألى هذا الحد يكون رفضك لكل ما يمس بشرية الإنسان ، مهما دق واستعصى على الإمساك ، وأفلت بقدرته الأسطورية من محاولة شكمه والسيطرة عليه ؟!

(فانما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله) ... وبذلك ... بهذه القدرة المدهشة على استئصال التميز الذي مضى بالآخرين إلى أعتاب الألوهية ... بل إلى الألوهية نفسها ، كما حدث مع عيسى (عليه السلام) يعلن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عبوديته لله تلك التي تقطع الطريق على أي ادعاء قد يمارسه التحريفيون وعشاق التأليه الباطل لأنبياهم وزعمائهم.
الطواغيت تسكرهم لحظة الانتصار وتصعّر خدودهم للناس ... بل انها - أحياناً - تفقدهم التوازن ...

هتلر لحظة سماعه نبأ دخول قواته بباريس راح يرقص رغم ما عرف عنه من وقار وجبروت ...

نابليون بوناپرت عندما انتصر على خصومه الألمان في معركة ينا عام (١٨٠٧م) ودخل برلين فاتحاً ... وهو يمتطي صهوة حصانه الأشهب ، دفع ب صدره إلى الأمام وصعّر خده ورفع جبهته إلى فوق ... كأنه يريد أن يقول ها أنا ذا البطل العظيم الذي سحق أعتى خصومه وألحق بالعسكرية الألمانية التي لا تقهر هزيمة ساحقة ... كان يرافقه يومذاك - ولحسن الحظ - رسام (بورتريت) فرنسي فسوره لحظة دخوله تلك ... ولا تزال الصورة معروضة في متحف اللوفر بباريس ...

كيف كان دخول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكة فاتحاً بعد أن انتصر على أعتى خصومه وأشدهم مراساً : قريش التي لم تأل جهداً في اعتماد أي أسلوب للقضاء عليه وسحق دعوته ...

تحدثنا كتب التواريخ كيف أنه كان يمتطي لدى دخول مكة ناقته القصواء ومن ورائه جيوش المسلمين ... وكيف أنه طأطأ رأسه الشريف وظل يبطأطؤها حتى مسّت لحيته ظهر

الناقة خجلاً من الله سبحانه وتعالى الذي منحه هذا النصر ، واعترافاً بفضله عليه ... وتواضعاً لجلاله (سبحانه وتعالى) ...

لم يحاول - وحاشاه - أن يرفع جبهته عالياً لأنه ما خطر على باله لحظة ، أن يقول لجماهير الناس من حوله : أنظروا إليّ ها أنا ذا الفاتح العظيم ... إنه الفارق الكبير بين طواغيت الأرض وبين الأنبياء والقديسين ... بين بونابرت وهتلر وبين الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) .

وبموازاة إغراء البطولة وإدعاء العظمة ، هنالك إغراء لا يقل عنه ضغطاً على النفس البشرية وسوقها في الاتجاه الذي يريد ... إنه إغراء التقرد والقداسة الذي أسر آلاف الزعماء والطواغيت والأدعياء ... ولكنه مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتراجع صاغراً مخلباً الطريق للنبي الإنسان الذي رفض حتى اللحظة الأخيرة أن يستعلي على جماهير أمته بأي معيار من المعايير ، رغم أن كل الظروف والمعطيات كانت ترفعه إلى سماوات التقرد والقداسة . كان يقول : (إني أتزوج النساء ، وأكل اللحم ، وأنام وأقوم ، وأصوم وأفطر ، فمن رغب عن سنتي فليس مني) ... وناداه رجل : يا سيدنا وابن سيدنا ، فقال : لا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي .

وكان أصحابه إذا رأوه قادماً عليهم لم يقوموا له ، وهو أحب الناس إليهم ، لما يعرفون من كراهيته لقيامهم . وكان يكره أن يمشي أصحابه وراءه ، ويأخذ بيد من يفعل فيدفعه إلى السير بجانبه ... رآه رجل فارتعد ، فقال : هَوْن عليك فاني لست ملكاً ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد .

ما كان يغلق دونه الأبواب ولا يغدى عليه بأواني الطعام ، وكان من أراد مقابله يقابله ... ثمة - أخيراً - حادثة كسوف الشمس يوم تشييع ابنه إبراهيم (عليه السلام) ... ظن بعض المشيعين أنها انكسفت حزناً على وفاة ابن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وكان بمقدور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يصمت كي يوحي لأصحابه بأن الظواهر الكونية تقدسه وتشاطره العزاء ... ولكنه ردّ بالحزم الذي يستهدف إزالة أية شبهة في هذا الاتجاه : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تتكسفان لموت أحد من الناس) ! ... (صلى الله عليه وسلم) ...

ولطالما رفع القرآن الكريم خطابه لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) مؤكداً دوره النبوي الخطير في أنه النبي البشر ... مثل سائر الناس ... لا يعلو عليهم إلا بمقدار ما يقدمه لهم من جهد مكافح في سبيل وحدانية الله جلّ في علاه ، وإنقاذ البشرية من السقوط في مهاوي الشرك والوثنية ، والتخبط في أباطيل الكهنة والمرترقة وإدعياء الدين : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى

إِلَيَّ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾
(سورة الكهف : الآية ١١٠).

بل إن الأنبياء جميعاً ، أولئك الذين سبقوا رسول الله ، مبعوثين إلى أقوامهم لكي يقودوهم إلى الصراط ، ويمنحوهم السعادة والتوحد والاطمئنان والرضا ... كانوا جميعاً (عليهم أفضل الصلاة والسلام) ، يؤكدون المعنى نفسه المرة تلو المرة : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَرَدُّونَ عَلَيَّ كَمَا لَأَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة هود : الآية ٣١) ، ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُمُونِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة هود : الآية ٥١) ، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَنْتَانِي مِنْهُ مَرْحَمَةٌ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِدُّونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ (سورة هود : الآية ٦٣) ، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَمَرَّقَنِي مِنْهُ مَرْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (سورة هود : الآية ٨٨) ...

لقد عرفها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ... عرف أن النصارى بإطرائهم ابن مريم انزلقوا بعيداً خطوة بعد خطوة ، ودرجة بعد درجة ، إلى أن أوصلوه مقام الربوبية وحاشاه ... ولا تزال فرقهم كافة ... كاثوليكية وارتدوكسية وبروتستانتية تجمع على اعتباره (ابن الله) وحاشاه ...

من أجل ذلك سينزل بينهم عيسى (عليه السلام) في آخر الزمن لكي يؤكد لهم بشريته ويعدّل ما فطروا عليه من شرك قبيح ...

(عليك أفضل الصلاة والسلام) يا رسول الله وأنت تعلن مجابتهك الصارمة لإغراء المديح والإطراء ... وعبوديتك المطلقة لله جلّ في علاه !!

في الاتيكيت النبوي

كثيرون من اتباع هذا الدين لا يملكون شيئاً من الذوق ورهافة الإحساس والتعامل مع مفردات الحياة اليومية بأقصى درجات الحساسية والجمال ... فتراهم ينقضون على ولائم الطعام بنهم عجيب ويضربون بأيديهم في صحافه ذات اليمين وذات الشمال ... ويتحدثون بصوت عال فاتحين أفواههم على مداها لكي يتساقط منها كم كبير من البقايا المقرزة على الطعام ... بل ويتدافعون بالمناكب من أجل الحصول على لقمة أفضل بعيداً عن أي قدر من الذوق والاحتشام !

ولنستمع إلى رسولنا المعلم الكبير (صلى الله عليه وسلم) وهو يقول بخصوص (اتيكيت) الطعام الذي يتباهى الغربيون بأنهم بلغوا القمة في مطالبه ، بينما نحن لا نزال نتحرك عند السفوح (فعن عمر بن أبي سلمة قال : كنت غلاماً في حجر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكانت يدي تطيش في الصحيفة فقال لي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يا غلام سمّ الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك ، فما زالت تلك طعمتي بعد) .

وهذا غلام يتلقى تعليمه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بخصوص تقاليد الأكل الحضارية ... ألا تطيش يده في الصحيفة وأن يأكل بيمينه ومما يليه ، فيلتزم التعليم ، ويظل على مدى حياته لا يأكل إلا وفق (الاتيكيت) الذي تعلمه من لدن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

فما بال كبار القوم في ديارنا ، ومناسباتنا ، ودعواتنا ، يضربون بهذه التعاليم عرض الحائط وينقضون على موائد الطعام كالوحوش الكاسرة من أجل افتراس اللقمة الأكثر دسماً ... بغض النظر عن يقف إلى جوارهم ينتظر فرصته لكي يمدّ يديه إلى الطعام !؟

بل ان الرسول المعلم (صلى الله عليه وسلم) يمضي خطوات أبعد من اتيكيت الطعام إلى اتيكيت العلاقة الجنسية بين الرجل وزوجته ... لله ... ما أشد حساسيتك المرهفة يا رسول الله وأنت تدلي بتعاليمك في هذا المجال ذي الخصوصية البالغة (فعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إذا طال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً . وعنه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : إذا دخلت ليلاً فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمشط الشطفة) (وعن جابر قال : نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يطرق أهله ليلاً) (وعن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه ، فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله) !!

إنه الجدل الأبدي بين البداوة والحضارة ... بين الخشونة والرقّة ... بين الغلظة والرهافة ... في التعامل بين الزوج وزوجته ... ولكن ما أكثر المسلمين الذين يحيئون ليلاً شعناً غبراً ، فيدخلون على زوجاتهم ، ويقضون حاجاتهم منهن دونما أي قدر من الحساسية تجاه مشاعر المرأة ، ورقتها وأنوثتها ... ودونما أي اعتبار للديكور الجميل الذي يجب أن تحاط به تلك العلاقة الخاصة والحميمة بين الرجل وزوجته ...

ها هنا ، كما هناك في ساحة الطعام ، يضع رسولنا المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) أصول (اتيكيت) في التعامل الحساس والمرهف والحضاري مع الحالتين ... ولطالما أمسكنا الغربيون وهم يرون هذا التناقض الحاد بين التعاليم والسلوك ، من أعناقنا ، وراحوا يدينون الحياة الإسلامية بالتخلف والخشونة وانعدام الذوق ... طعاماً وممارسة جنسية ... متناسين أن هناك في صميم الحياة الإسلامية قطاعات كبيرة ، وكبيرة جداً ، من ذوي الالتزام باتيكيت التعامل مع الحالتين كما أمرهم بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ... بل كما أكدتها آيات القرآن الكريم القاطعة في هذا المجال : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... ﴾ (سورة الأعراف : الآيتان ٣١-٣٢).

والحق أن تعامل الغربيين مع الطعام والجنس ، إذا كان في ظاهره يلتزم اتيكيتاً محدداً ، فإنه في باطنه مترع بالفحش والقدارة التي يأنف منه أشد المسلمين بعداً عن مطالب هذا الدين ...

ولقد رأيت بأم عيني ، مباشرة أو على شاشات التلفاز ، ما وراء الديكور الخارجي للممارستين معاً ... فرأيت الحالات التي يأنف الإنسان حتى من تسميتها والإشارة إليها لأنها تبلغ في اسفافها حدّاً تريباً الكلمات أن تحمله للآخرين ...

كنت الحظ - على سبيل المثال - كيف يمدّ الغربي فتحة حوض الماء بالسداد المعروف ، ثم ما يلبث أن يملأه ويبدأ بغسل وجهه منه ، رغم أنه قبل لحظات قد تلقى من المخاط والبصاق الشيء الكثير ... وكنت أرى بأم عيني كل الغربيين على الاطلاق وهم يمارسون لعب كرة السلة أو الطائرة فإذا بكتل مقززة من الشعر الكثيف تبرز من تحت آباطهم ... وكنت أراهم كيف يهتمون الطعام النقي الذي لم تمسه النار ... بل كيف يقبلون بنهم على أطباق الحشرات المقلية التي يأنف منها أشد الناس خشونة وبداوة ...

بل إن ممارستهم الجنسية لتصل حدًا يتجاوزون به كل معايير القيم الخلقية والجمالية معاً ... فيلجأون إلى الشذوذ الجنسي ... والزنا بالأطفال ... ويقرون الزواج المثلي في برلماناتهم وكنائسهم رغم ما في ذلك من تناقض حاد مع مطالب دينهم وإنسانيتهم ... إنه الديكور الخارجي المضلل وليس وراءه سوى البشاعة والخراب ...

ها هنا في ديننا يجد الإنسان من يحميه !!

أيها الادعاء الكذبة ... أيها المنادون زوراً بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وملاحقة الإرهاب ... أيها القتلة ... يا من ذبحتم مئات الآلاف من اليابانيين بقنبلتين ذريتين ... وملايين الفيتناميين في محاولتكم تأكيد قدرتكم على حكم العالم ... ومائة وعشرين مليوناً من الهنود الحمر ، سكان أمريكا الأصليين ، لكي تستأثروا بالأرض ... يا من أسقطتم على العراق وأفغانستان عشرات الآلاف من اليورانيوم المخضب فحكمتهم على ذراريهم بالإعدام لعشرات السنين القادمة ومئاتها ...

يا من بدلتهم دين المسيح وحولتموه إلى جملة من الأساطير والضلالات ... يا من خضعتهم للعلق الصهيوني ، وحنيتهم له رؤوسكم ، فأمسككم من قرونكم وساقكم إلى حيث يريد هو لا ما تريده شعوبكم ... أيها المتباهون بحماية الحيوان وأنتم تذبحون يوماً عشرات الآلاف من بني الإنسان متخذين من (الهوبزية) دستوراً لكم : اقتل واقتل واقتل حتى تؤكد سيطرتك المطلقة على العالم !!

ها هنا في ديننا ... في تعاليم كتابنا ... وتوصيات رسولنا العظيم (عليه أفضل الصلاة والسلام) يجد الإنسان من يحميه من القتل ، ويحترم إنسانيته ، ويكفه عن قتل نفسه !! ففي ظلال تلك الرؤية المضللة التي تستهين بالدم الإنساني استشرت في ديارها ذاتها ظاهرة الانتحار الفردي والجماعي ... ومضت لكي تشكل مساحات واسعة ومخيفة في الحياة الغربية ... حتى أن آخر الإحصائيات التي أعلنت في عام (٢٠١١م) تقول بأن عشرة بالمائة من الأمريكيين يعانون من الاكتئاب والهروب إلى المغيبات ... والانتحار ... وان اليابان خصصت ثلاثين مليار دولار لملاحقة حالات الاكتئاب والانتحار في ديارها ... وفي البلدان المتقدمة جداً في أوروبا تزداد بشكل عكسي حالات الانتحار ... وثمة أفلام عديدة عرضتها شاشات التلفاز عن عمليات الانتحار الجماعي التي مارسها ولا يزال ، ادعاء الأديان الجديدة في الأمريكيتين.

ها هنا ... في ديننا ... في تعاليم كتابنا وتوصيات رسولنا العظيم (صلى الله عليه وسلم) يجد الإنسان من يحميه من القتل ، ويحترم إنسانيته ، ويكفه عن قتل نفسه تحت أي ذريعة كانت ... على الاطلاق ...

(فعن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً. ومن تحسّى سماً فقتل نفسه فسمه في يده

يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً. ومن قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يجار بها بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً) ...

فهل ثمة وعيد أشد من هذا لمن يلجأ إلى الانتحار فيقتل نفسه؟! إنه يجعل الإنسان يتردد ألف مرة قبل أن يقدم على هذه الفعلة الشنعاء التي ستصيبه باللعة والعذاب إلى أبد الآبدين ... ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : (الإنسان بناء الله في الأرض ملعون من هدم بنيانه) ...

ومن أجل ذلك تضاءلت حالات الانتحار في الديار الإسلامية على مدى تاريخنا الطويل ... بل انها كادت أن تنعدم في مساحات كبيرة جداً من هذا التاريخ ... في الوقت الذي راحت تستشري كالنار في الهشيم ، في ديار الآخرين فتفترس الكثير الكثير منهم استهانة بهذه المنحة المقدسة القادمة من لدن الله (جلّ في علاه) ...

ويمضي هذا الدين في التأسيس لحماية الإنسان ... حتى بعد موته ... أياً كان انتماؤه الديني أو المذهبي ... مسلماً أو غير مسلم ... الإنسان على اطلاقه ... (فعن عائشة قالت : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا) !! ثم يمضي خطوة أخرى في تأكيده لاحترام الإنسان في أهم قضاياه على الاطلاق : الحياة واستمرارية الحياة ... فيأمر اتباعه ألا يتمنى أحدهم الموت لأن ذلك سيحرمه من كسب المزيد من الأجر بعمله الصالح وتجاوز سيئاته بالتوبة إلى الله (فعن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : لا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد وإما مسيئاً فلعل يستعذب) !!

بل ان هذا الاحترام الفريد لإنسانية الإنسان ووضع ذلك السياج المتين ضد استباحة دمه وقتله ، يمضي لكي يطال عالم الحيوان الذي طالما تباهى الغربيون بتدليله وتمريضه واطعامه وحمانيته من كل ما يمسه بسوء في الوقت الذي يستباحون به إهانة وقتل وتصفية خصومهم من بني الإنسان بالآلاف والملايين. وكلنا نذكر أحاديث الرسول العديدة حول ضرورة الاهتمام بالحيوان ، ورعايته ، ومتابعة مطالبه الضرورية ، وتمكينه من مواصلة الحياة ... وكيف ان امرأة دخلت النار بسبب هرة ساققتها إلى الموت ... وأن رجلاً فاجراً دخل الجنة لأنه وجد كلباً يعاني من العطش الشديد فما كان منه الا أن يجعل من نعله وعاء بمتح له به من ماء البئر فيسقيه ويرده إلى الحياة (فعن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرّب منه ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال : لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي فمألاً خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له. قالوا : يا رسول الله وان لنا في البهائم أجراً ؟ قال : في كل كبد رطبة أجر) !!

إننا - باختصار شديد - نعيش عصر الكذب ... والدجل ... والتزييف الذي يراد به التغطية على ما يمارسه الغربيون من جرائم كبرى بحق الإنسان ، ومن تزييف خطير بحق الأديان ... وكلنا نذكر هذه المفارقة الكبرى بين المناداة بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وملاحقة الإرهاب ... وبين الممارسات الواقعية المترعة بالإرهاب ... واغتيال حقوق الإنسان ... والإبحار في اتجاه مغاير تماماً لما تتطلبه بديهيات الالتزام بمفاهيم الحرية والديمقراطية. فلا حول ولا قوة إلا بالله ...

أداة الشيطان

(عن أسامة بن زيد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : ما تركت بعدي فتنةً أضّر على الرجال من النساء) ...

فلا إغراء المال ... ولا إغراء القوة والسلطان ... ولا إغراء التكاثر بالذري والأولاد ... ولا إغراء التكديس المجنون للذهب والفضة ... والخيل والأنعام ... يعدل في ضرره لأولئك الذين استعبدهم الإغراء بشتى صنوفه ... فتنة النساء !!

فها نحن نرى بأم أعيننا ما تفعله هذه الفتنة بمجرد أن ننزل إلى شوارع مدننا وأسواقها ونواديبها ومسابحها ... أو بمجرد أن نلقي نظرة ونحن نقلب ريموت التلفاز من قناة إلى قناة ... فإذا بمعظم هذه القنوات التي تتجاوز الألفين عدداً ... تعرض (المرأة) في أشد حالات الفتنة والإغراء ، وتزيدها - يوماً بعد يوم - تيرجاً وتعهرراً وفجوراً ... دون أن تراعي حقيقة أن هذه القنوات قد اخترقت على الناس كافة مساكنهم وصالات جلوسهم وغرف نومهم ... حيث يتحتم أن تراعى حرمة البيوت ومطالب الطفولة التي تفتح عينيها ووعيتها على هذا الفجور اليومي ، حتى ولو كان عبر رحلة عابرة وسريعة ونحن نقلب قنوات التلفاز بحثاً عن البرامج النظيفة الهادفة التي تبني ولا تهدم وتسوق أطفالنا إلى الدمار ...

اننا حتى ونحن نتابع نشرات الأخبار نجدنا وجهاً لوجه أمام ثلة من المذيعات المتبرجات بل والمتعهرات أحياناً ... وكأنهن وهن يذهبن لإلقاء نشرة الأخبار يتجهن إلى ملاهي العروض المثيرة للفتنة والإغراء ...

والفضائيات تتسابق في توظيف المرأة لفتنة الرجل ... في الأفلام والتمثيلات والسهرات التلفازية والحواريات ... وعبر (الإعلان) الذي يأخذ مساحة واسعة من البرامج اليومية ويوظف الجسد الأنثوي لترويج بضاعته ...

ما من برنامج الا وهو مخترق بفتنة المرأة التي إذا أرادت الاستمرار على كسب دخلها الموفور ، فان عليها أن تكشف عن لحمها أكثر فأكثر حتى لم يتبق ثمة إلا اصبع أو اصبعين لكي يرى المشاهد عياناً ملابسها الداخلية !!

ولطالما وظفت المرأة ، فضلاً عن هذا كله ، فيما هو أشد وأخطر ، بما تملكه من فتنة لا يمكن مقاومتها ... في المافيات التي ترفع سلاح المال والجنس والقتل لتحقيق أهدافها الخطيرة ... في الانتخابات البرلمانية والدعايات الحزبية التي تستعمل فيها للترويج وتوسيع قاعدة الأنصار والمؤيدين ... في الأنشطة السياحية التي يراد منها أن تتحول إلى ماخور كبير توظف فيه فتنة المرأة لكسب المزيد ... بل في أعمال التجسس الخطيرة ، وأنشطة المخابرات التي تدخل

فيها المرأة طرفاً فاعلاً ... وكلنا نذكر مذكرات (اعتماد خورشيد) التي تزوجها زعيم المخابرات المصرية زمن عبد الناصر : صلاح نصر ... كيف أنه كان قوادةً كبيراً يوظف الفنانات والراقصات في شبكة مخابراته ... وكيف كان يقيم في إحدى منتدياته حفلات الممارسات الجنسية القذرة ، وكيف أفلتت من قبضته الممثلة المعروفة (مريم فخر الدين) وغادرت مصر إلى لبنان ...

لقد غدت المرأة في زمننا هذا مجرد أداة رخيصة للاستعمال والتوظيف لدى سيطرة العالم وتجاره الكبار ففقدت بذلك مكانتها المتميزة وكرامتها التي أرادها لها هذا الدين .
فهل ثمة أضرار على الرجال ... بل على المؤسسات والأنشطة السياسية والإعلامية والاقتصادية ... من المرأة ؟

صدق يا رسول الله ... وكأنك تتحدث عن المستقبل البعيد ، وتجتاز برؤيتك النبوية الثاقبة حجب الغيب لكي توضح ، وتحذر ، وتنبه ، من هذا السرطان الخبيث الذي سيستشري لإفساد الرجال ... والأطفال ... والقادة ... والزعماء ... وأرباب السياسة والمال ...
وكلنا نذكر ما تفعله إسرائيل التي لا ترد نساؤها يد لأمس ، إذا استعملنا عبارة الداعية المصري الكبير (محمد الغزالي) رحمه الله ... كيف أنها وظفت ولا تزال أجمل النساء لاصطياد الأنصار وإرغامهم على طاعتها وإلا كشفتهم بكاميرتها الخفية ... وكيف أن الزعيم الفرنسي المعروف (جاك شيراك) وهو يقوم بزيارة إلى إسرائيل دفعوا إليه بواحدة من أجمل الفتيات لكي يقضي معها عدة ليالٍ حمراء ...

وجاك شيراك ليس وحده ... بل ان بعض الزعماء الفلسطينيين أنفسهم اصطيادوا في تسعينيات القرن الماضي بالشبكة نفسها فأصبحوا تحت قبضة بني إسرائيل !!
نعم وبكل تأكيد ... فليس ثمة فتنة أضر على الرجال من النساء ... وصدق يا رسول الله

...

فهي عنده فوق العرش

(عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي) ...
يا الله ... على هذا الفضاء الواسع الذي يغطي على سلوك الإنسان المنحرف ، وأخطائه وضلالاته ، مهما اشتدت واتسعت مساحاتها ، فيغريها بالعودة إلى الطريق ، بعد أن يمسح على خطاياها ويعدها بالمغفرة والفلاح !

يا الله ... على هذه الصورة المؤثرة التي تجعل الرحمة تغلب الغضب في سباق الصراع اللاهث بين الحسنات والسيئات من أجل أن تعطي الإنسان الخاطئ الفرصة المفتوحة على مداها للوصول إلى خط النهاية والفوز بالجائزة الكبرى ... بعد أن يكون قد تطهر من آثامه ومعاصيه !
الطريق المفتوح حتى آخر الشوط حيث لا عوائق ولا متاريس ولا شبكات اصطياد من أجل الإيقاع بالإنسان الكادح وسوقه إلى العقاب العسير ... على خلاف ما تحدثنا به التراجيديات اليونانية الكبرى وما انسرب في عقول وضمائر الغربيين الملاحدة على مدى التاريخ ... حيث وضع الإنسان في دائرة معادلة خاسرة يقاتل فيها قوى غيبية تفوقه بكثير ، وينتهي الأمر دائماً بهزيمة الإنسان ...

ليس ثمة هزيمة ها هنا في ظلال هذا الدين السامح القادم من لدن الله سبحانه وتعالى خالق الإنسان ، وهو أدرى بما خلق ... بهذا الكائن الفريد المعجون من نفخة الروح العلوية وقبضة الطين السفلية ... تلك تسعى إلى رفعه إلى فوق وهذه تجرّه إلى الأسفل ... ويدور الصراع على مدى عمر الإنسان كله ... وها هنا يجيء الأمل الكبير بانتصار الإنسان على الخطيئة وإفائه إلى رحمة الله التي سبقت غضبه ، كما يحدثنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) !!

تلك هي إحدى الحقائق الكبرى في هذا الدين ، وهي ليست كلاماً يقال وإنما وعد إلهي مقدس من ربّ العالمين ... مدون في كتابه الكبير ... فهو عنده فوق العرش !!
ألى هذا الحدّ يبلغ من تأكيد الإسلام على الرحمة التي تغلب الغضب بحيث أنها كالعهد المقدسة تسجل في كتاب الله الكبير فوق العرش ؟

ألا يدفعنا هذا إلى التشبث أكثر فأكثر بهذا الدين الذي يمنحنا هذا الفضاء الواسع والسماء الكبيرة والأفق المفتوح للخلاص !؟

فأية عقيدة أخرى في العالم ... وأي دين غير هذا الدين ... وأي قانون غير قانون الإسلام من رفع الرحمة فوق الغضب ... والعفو فوق العقاب ... والسماحة فوق الشدة ... كهذا الدين ؟

عبر حياتي الطويلة ، بفضل الله ، جست معظم نظم العالم وأديانه المحرفة وفلسفاته وتشريعاته وآدابه وفنونه ... فلم أجد في أية واحدة منها ، أو قريباً منها ، هذه القاعدة الكبرى التي يؤكدها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حديثه هذا : الرحمة التي تغلب الغضب ... ومن أجل ذلك ... من أجل أن الغضب طالما أخذ برقاب الإنسان فاكتسح به الرحمة ... قامت المذاهب والدعوات والثورات الدموية ، التي طالما افترس القائمون بها بعضهم بعضاً ... ومن أجل ذلك حدّت السكاكين وشفرات السيوف لكي تقترس السماحة والرضا ... ومن أجل ذلك نظرت الشوفينيات الكبرى ، والتجارب الشيوعية ، والهوبزية الأمريكية من أجل قتل الإنسان ، إذا أرادت أن تكون سيدة في هذا العالم ، وألا تتزحزح عن موقعها العالي المتسلط على رقاب الناس !!

ومن أجل هذا مضى الفاتحون المسلمون لفتح العالم ، لا لكي يرغموا الآخرين على اعتناق هذا الدين ، كما يتوهم البعض من خصوم هذا الدين ، وانما للإطاحة بالسلطات الباغية التي تسعى لإرغام الإنسان على اعتناق عقائدها تلك التي يغلب فيها الغضب على الرحمة ، وإتاحة حرية الاعتقاد للإنسان في كل زمن ومكان ...

ومن أجل هذا كان تخيير الفاتحين للأمم والشعوب : الانتماء إلى الإسلام ، أو البقاء على أديانها وعقائدها ... أو القتال ... فالطريق مفتوح على مصراعيه لاستمرار موازيك العقائد والأديان في الخارطة الإسلامية : اليهود والنصارى والمجوس والصابئة ... الخ ... الخ ... فلو أن أي قدر من الارغام تم بحقهم - كما يقول المستشرق البريطاني المعروف : سير توماس أرنولد في كتابه : الدعوة إلى الإسلام - لما بقي في ديار الإسلام يهودي أو نصراني واحد ... وهو يقول أيضاً أنه في متابعته المستقصية لانتشار الإسلام على مدى ثلاثة عشر قرناً ، لم يجد حالة واحدة أكره فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام !!

إنها دعوة الرحمة بالإنسان تلك التي يحدثنا عنها رسول هذا الدين (عليه أفضل الصلاة والسلام) وأنها كتبت فوق العرش ... تأكيداً وديمومة واستمراراً : (إن رحمتي غلبت غضبي) ...

بل ان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يحدثنا فيقول : (قُدم على النبي (صلى الله عليه وسلم) بسبي فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) : أترون هذه طارحةً ولدها في النار ؟ قلنا : لا وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها) !! (وعن أبي هريرة قال : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، وأريد أن اختبئ دعوتي شفاعَةً لأمتي في الآخرة) !!

ليس لنفسك يا رسول الله ... تتجاوز إغراءات الذات التي أسرت ملايين الناس ، بمن فيهم
القادة والزعماء ، من أجل حماية أمتك ... تخلصها من العذاب ... ألسنت أنت - بحق -
المخلص ، المتفرد ، الكبير ؟
فيا أيها الضائعون وسط ضلالات القيادات البشرية الطاغية التي استعبدتها القوة والأثرة
فسلطتها على رؤوس الأمم والشعوب باسم قيادة العالم والتفرد بحكمه ...
أفيقوا ...

دين المحبة

(عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : إذا أحب الله عبداً نادى جبريل ان الله يحب فلاناً فأحبهه فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء : ان الله يحب فلاناً فأحبهه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع القبول له في الأرض) ...
ومنذ أن أعلن عيسى (عليه السلام) في إنجيله الصحيح (ان الله محبة) وحتى كلمات رسولنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) هذه ... راحت المحبة تتصادى في جنبات الكون والعالم ... وفي ضمير الإنسان ، ووجدانه وسلوكه ... المحبة التي لو قدر لها ان تحكم الدنيا لما شهدت الدنيا هذا العنفوان الدموي الرهيب من الكراهية والصراع والبغضاء ...
المحبة التي تغسل أدران النفوس ، وتعرضها للشمس ، وتفتح أمامها بوابات السماء الكبيرة والفضاء الواسع الذي يلتقي فيه الإنسان بالإنسان في أقصى حالات التوافق والرضا والانسجام ...

المحبة التي بيدوها الله (جلّ في علاه) بأن ينادي جبريل بأني أحب فلاناً فأحبهه فيحبه جبريل ... ثم ما تلبث دائرة المحبة أن تتداح لكل تشمل أهل السماء والأرض على السواء : (فينادي جبريل في أهل السماء ان الله يحب فلاناً فأحبهه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض) !!

أي تأكيد هذا على (المحبة) التي يراد لها أن تحكم الحياة ، وأن تطرد خبثها وننتها والتواءاتها وشططها وميولها وأهواءها وظنونها ... تلك التي قادتها في نهاية الأمر إلى أن يقتل بعضها بعضاً وأن يذبح بعضها بعضاً بسكين الكراهية والبغضاء ... بل قادتها إلى ما هو ألعن من هذا وأشد فتكاً بالإنسان ... إنه ذلك السباق الرهيب في ابتكار أجهزة الحرب الذرية بألياتها وطائراتها وبوارجها العملاقة وصواريخها العابرة للقارات ، والتي ذاقت الشعوب المستضعفة من ويلاتها ما ألحق بها وبنيتها التحتية الخراب والدمار ، وتخريج أجيال من المعوقين والمشوهين نفسياً والمصابين بالإشعاعات الذرية تلك التي تصفي منهم في العراق وحده عشرات الآلاف سنة بعد أخرى ...

وكرر فعل على غياب المحبة والسلام بين الشعوب نادى الماركسية بأعلى صوتها أنها جاءت لكي تنشر السلام ... وتشكلت على مدى تجربتها التي لم تعش بأكثر من سبعة عقود بالسلام العالمي وأنشأت له المنظمات وعقدت له الندوات والمؤتمرات ... لكنها كانت في واقع أمرها تبحر باتجاه مضاد لما تدعو إليه ... فان مفاهيم القتل والتصفية الطبقيّة مركوزة في

صميم عقيدتها ، منفذةً عبر تاريخها الدموي الطويل ... فأين هو السلام ؟ وأين هي المحبة بين الشعوب !؟

ومهما حاول صناع المذاهب والنظريات الوضعية م وضع ديكور المحبة والسلام على وجه عقائدهم البشعة ، والمترعة بالكراهية والبغضاء ... وبروح الحرب والقتل والإبادة الجماعية ... فلن يقدروا على غرس المحبة الحقيقية في ضمير الناس وسلوكهم ... وفي سياسات الزعماء وأرباب المذاهب والنظريات ...

لن يقدر على هذا سوى الدين القادم من عند الله الذي هو أرفأ بعباده من الأم على أولادها ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ طَائِعِينَ وَمُعْتَابِينَ أَفَإِنَّ يَأْتِيكُم مِّنْ رَبِّكُمُ الْحَسْرَةُ﴾ (سورة الملك : الآية ١٤).

الدين الذي أعلن نبيه عيسى (عليه السلام) بأن الله محبة ... ونذر حياته لتحقيق هذا الهدف الإنساني النبيل بكل ما ينطوي عليه من معنى ... ولم حوله حواريه وتلامذته وبعثهم إلى الآفاق لكي يبشروا بدعوته هذه ...

الدين الذي جاء نبيه الأخير محمد بن عبد الله (عليه أفضل الصلاة والسلام) لكي يتم ما بدأه أخوه عيسى (عليه السلام) فيدعو إلى المحبة ، ويؤكد لها في سلوكه وتعاليمه ... ويحدثنا عبر هذا الحديث المؤثر الذي تتصادى المحبة في جنباته بين أهل السماء وأهل الأرض . (فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ان الله تبارك وتعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألتني ل أعطينه ، ولئن استعذني لأعيزنه . وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) !!

فأية محبة تفوق هذه المحبة الإلهية للإنسان المؤمن ، وتعلو عليها ؟! إننا هنا بآء قمة من قمم المحبة العليا التي تتضاءل آزاءها وتمحي سائر أنواع المحبة البشرية الصادقة أو المدعاة ... ها هنا يقف الله جلّ في علاه إلى جوار عبده فيكون بصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ... ولسوف يستجيب لكل سؤال ويبعده من كل مكروه ... يا الله ... إلى هذا الحدّ تبلغ محبتك لعبادك وأوليائك ؟! إلى هذه الدرجة من التصادي مع هموم الإنسان ومطالبه تكون الاستجابة العليا ؟ جلّ جلالك يا الله ... جل جلالك ...

(وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يقول الله (عز وجل) : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وان ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم ، وان تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وان أتاني يمشي أتيته هرولاً) !!

بل ان المحبة الإلهية تبلغ حدّ الصبر المدهش على الأذى الذي يلحقه العباد برب العزّة جلّ في علاه ، بأن يمارسوا بحقه الكذبة الكبرى في تاريخ البشرية على الاطلاق ... أن يدعوا له ولداً وحاشاه (فعن أبي موسى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله. انه ليدعون له ولداً وإنه ليعافيهم ويرزقهم) !!
وثمة أخيراً وليس آخراً هذا الحديث الذي يختصر الأمر كله : (عن أنس عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) فلو أن كل مسلم في هذا العالم قدّم لأخيه ما يحبه لنفسه فهل يتبقى ثمة حقد أو كراهية أو غل أو بغضاء ؟ وهل يكون المؤمن مؤمناً بحق إلا أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ؟ لنجربّ ولنرى النتيجة المدهشة ...

وتمدّ المحبة الإلهية جناحيها إلى ما وراء الحياة الدنيا ... إلى يوم الحساب ... فتذهب مع الذاهبين إلى الجنة لكي تمنحهم ظلها الظليل (فعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ان الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك. فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول : أنا أعطيتكم أفضل من ذلك. فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحلّ عليكم رضواني فلا اسخط عليكم أبداً) ... وليس بعد هذه المحبة الإلهية الكبرى من زيادة لمستزيد ...

ولكن ماذا يصنع الإنسان وهو ما يلبث أن يجد نفسه قبالة مجموعة من أدعياء الدين وكهنته ومرترقته ممن يزيفون جوهره ، ويمسخون تعاليمه النبيلة ، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ؟ إذ ما عتمت المسيحية الأصيلة أن تلقت بعد مرور عقود محدودة فحسب على رفع المسيح (عليه السلام) إلى السماء ، جملة كبيرة من التحريفات التي الصقت بهذا الدين على يد واضعي الأنجيل المزيفة ، وأحدهم وهو القديس بولس ممن كان يحمل معه شبكة من المفاهيم الوثنية اليونانية ، فطغت على تعاليمه الأصيلة ، وقادت الشعوب المسيحية إلى تجاوز كل مفاهيم المحبة والانتقال إلى الاضطراع والكراهية والبغضاء ؟
وماذا يصنع الإنسان وهو ما يلبث أن يجد نفسه قبالة العديد من الفرق الإسلامية التي اعتمدت العنف بدلاً من المحبة التي جاء بها هذا الدين لكي يؤكدوا وينشرها بين الناس !؟

دين التيسير

(عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : قال لي النبي (صلى الله عليه وسلم) ان الله يحب الرفق في الأمر كله).

(وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال : كنا إذا بايعنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على السمع والطاعة يقول لنا فيما استطعت).

(وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : ان الدين يسر ولن يشاء الدين أحد إلا غلبه).

(وعن عائشة (رضي الله عنها) ان النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل عليها وعندها امرأة فقال : من هذه ؟ قالت : فلانة تذكر من صلاتها ، قال : مه ، عليكم بما تطيقون فو الله لا يمل الله حتى تملوا وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه) !!

هذه جملة من الأحاديث الشريفة التي تؤسس لسلوكيات هذا الدين ... تؤكد على الرفق ، والسماحة ، والعمل بما فطرت عليه جبلة الإنسان من قدرات وطاقات.

الاستطاعة ... والجهد المكافح بما يطيقه الإنسان ، وليس بما يضيق عليه الخناق. لأن الدين يسر (ولن يشاء الدين أحد إلا غلبه) ... ولأن الإلحاح في التعامل مع مفرداته ومطالبه قد يقود إلى (الملل) وربما إلى التنازل عن الالتزام بمطالب الدين نفسه ، والتقلت من مقتضياته ...

وثمة عبارة ذات دلالة مؤثرة تلك التي يقول فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (فو الله لا يمل الله حتى تملوا) ... فيا سبحان الله على هذه المفارقة المدهشة بين الله جلّ في علاه ، المنزه عن كل شيء على الإطلاق ، وبين عباده ... فإذا ملوا لكثرة التشدد والغلو ... فان الله (سبحانه وتعالى) يملّ وحاشاه !!

وفي مقابل هذه الأحاديث التي تدعو إلى الرفق والسماحة والتعامل المناسب تماماً لقدرات الإنسان ، ثمة شبكة أخرى من الأحاديث التي تتدد بالتشدد والغلو ، لا يتسع هذا المقال لاستعراضها ولكنها تؤدي في نهاية الأمر حتى إلى إهلاك الأمم والشعوب ، فضلاً عن التخلي عن دينها وأخلاقها ...

إن هذا كله ينبثق عن القاعدة القرآنية التي تقول : ﴿... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾ (سورة البقرة : الآية ١٨٥) ، بل عن التسمية التي أطلقت على ديننا

السمح المرن الذي يعرف كيف يتعامل مع الإنسان فلا يضيق عليه الخناق ويدفعه دفعا إلى أن يفلت من بين يديه : (الحنفية السمحاء) ... ففي هذه العبارة الموجزة اختصار للأمر كله ... صحيح أن هناك نفر من المسلمين ، يأخذون في تعاملهم مع مفردات هذا الدين بالعزم ، ابتغاء الحصول على أجر أكبر ، وأنهم ضربوا بذلك أروع الأمثلة في التاريخ البشري ... ولكن الناس ليسوا كلهم سواء ... وهذا الدين انما جاء للناس كافة ... ومن أجل ذلك ترك لهم الباب مفتوحاً للتعامل مع مطالبه كل بما يطيق ...

ومعروف أن الأفعال الخاطئة تؤكد ردودها الخاطئة ، بنفس القوة وفي الاتجاه المعاكس ، وأن الغلو والتشدد ، وفق هذا المنطوق ، طالما قاد أجيالاً من الناس إلى أن يهربوا من مظلة هذا الدين ، ويبحثوا عن ممرات لهم خارج مطالبه ، لكي يريحوا أنفسهم ويلبوا أشواقهم المكبوتة !!
وها نحن ذا نرى رأي العين في واقعنا المعاصر الأكثريات الساحقة التي انتمت إلى الضلال ، وحادت عن الصراط المستقيم ، لا لشيء إلا لأنها انقلبت على شبكة من الالتزامات المغالية ، المتشددة ، التي لم تعد تطبيقها لأنها تصطدم ابتداء مع طاقة الإنسان وقدرته على التحمل.

بل ان الكثير من الفرق الضالة ، ما ساقط اتباعها إلى الضلال إلا بالزامهم جملة من العقائد الباطلة ، والمطالب المتلوية ، والأوامر المشددة ، فخرس الإسلام بذلك مساحات كبيرة من المنتمين إليه ...

(ان الله يحب الرفق في الأمر كله)

في الأمر كله ... على اطلاقه ... فليس ثمة مساحة ، أو حلقة في هذا الدين تخرج عن مطالب الرفق الذي يحبه الله ، ورسوله (صلى الله عليه وسلم) يقول : (ان الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه) ... ومن أجل ذلك كان التخفيف عن المسلمين المسافرين في صلواتهم جمعاً وقصراً ... وكلنا ذاق حلاوة هذه الرخصة وهو يسافر من مكان إلى مكان ، راكضاً وراء مطالبه المزدحمة ، حيث لا يجد الوقت الكافي لأداء الصلوات الخمس في أوقاتها فإذا بها تختزل بجمع التقديم أو التأخير ، إلى ثلاث فحسب ، حيث يتاح للمسافر أن يرجع إلى فندقه فيؤديها ...

وذاق حلاوتها الصائمون الذين يجدون في أسفارهم أو مرضهم مشقة الجوع والعطش ، إذا التزموا بالصيام ، وبالتالي فتحت أمامهم الأبواب لكي يفطروا ويعوضوا بعد عودتهم أو شفائهم عما أفطروه ... وكلنا يعرف ما فعله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، هذا المعلم الكبير ، في أحد أسفاره التي وقعت في رمضان ، كيف أنه أمسك في وضح النهار بقدر الماء ، وهو

راكب على ناقته ، وشربه قبالة جموع الصائمين وكأنه يريد أن يقول لهم ، بل يأمرهم ، بأن يفطروا هم الآخرون فيريحوا أنفسهم من العطش والمعاناة ...

الحنفية السمحاء ... تلك هي قاعدة هذا الدين ، ولن تدخن عليها أو تلغيها من الحساب كل دعوات الغلاة والمتشددين ... ما دام أن الله سبحانه وتعالى قد اختار لها هذا العنوان ، ووضع عليها هذه اللافتة التي تختصر الأمر كله !!

فلو أننا دخلنا على الغربيين الذين يتزايد دخولهم في ساحة هذا الدين ، كما تشير الإحصائيات بهذه الرؤية السمحة ، وقدمنا لهم شواهد عليها من سلوكنا المستمد من قيم هذا الدين ، وتجاوزنا التعامل معهم بمنطق التنديد والتشدد والتشبيث ، الذي يتجاوز كل حد ، بالشكليات ، فكان حصادنا أكبر بكثير ... بكثير جداً ... ولكن !!

ونختم المقال بهذا الحدث الشريف الذي يغني عن أية زيادة : (عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون . قالوا : انا لسنا كهيئتك يا رسول الله ، ان الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فيغضب حتى يعرف الغضب على وجهه ثم يقول : ان اتقاكم وأعلمكم بالله أنا) ...

وصدقت يا رسول الله !!

الكرم الإلهي

(عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : إذا أسلم العبد فحسن إسلامه يكفر الله عنه كل سيئة كان زلفها ، وكان بعد ذلك القصاص الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها) !!
فأي كرم هذا يا رب العالمين !؟

(وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما يروي عن ربه (عز وجل) قال : ان الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فان هو هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فان هو هم بها فعلمها كتبها الله عليه سيئة واحدة) !!
أي كرم ان تعاقب السيئة بمثلها ، وأن تضاعف الحسنة إلى عشر أمثالها ثم إلى سبعمائة ضعف !؟

أي كرم هذا بأن يفتح الباب على مصراعيه حتى لتجاوز السيئة بالعقاب بمثلها ؟
أليس هو كرم الله (سبحانه وتعالى) الذي تتضاءل ازاءه كل محاولات عباده وهم يمارسون الكرم مع الآخرين من أصدقائهم أو خصومهم على السواء ؟

ويمضي الكرم الإلهي إلى آفاق بعيدة بعيدة بحيث أنه يغسل من النفس البشرية أي إحساس بالتأثم وهي تمارس الخطايا واللمم شريطة أن تكون شهادة التوحيد المطلق لله جلّ في علاه مركوزة في فطرتها ، ومعها وزن شعيرة أو برة أو ذرة من خير (فعن أنس (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير . ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير . ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير) !

بل ان الكرم الإلهي ليلحق المرضى والمسافرين فيكتب لهم في أعمالهم من الأجر مثلما كانوا يعملونها وهم أصحاء مقيمون (فعن أبي موسى (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً) !!
إننا هنا بإزاء الأبواب المشرعة للخلاص .. بإزاء الطريق المفتوح للخروج ... بإزاء ما يمكن اعتباره معالجة نفسية مدهشة للإنسان الوجع الخائف من العقاب بسبب ذنب ارتكبه ، أو خطيئة مارسها ... معالجة تعرف كيف تستأصل - بالكرم الإلهي - كل مشاعر الخوف والاحساس بنزول الويل والثبور ...

نقارن هذه المساحة الهائلة للكرم الإلهي ... للعفو الإلهي ... بما يفعله الإنسان بالإنسان من قتل وإبادة وعقاب جماعي تشيب لهوله الولدان ... نقارنه بالمقتلة الشاملة التي تمارسها قبيلة ضد قبيلة ، بحجة الحصول على مطالب المعاش ... وقومية ضد قومية بحجة التفوق العرقي ... وأمة ضد أمة بحجة البحث عن المجال الحيوي ... ودين محرف ضد دين محرف بحجة هداية الناس إلى الحق ، وطبقة ضد طبقة بحجة مطالب الديالكتيك التاريخي ... وزعامات جائرة ضد الشعوب المستضعفة بحجة المنطق الهوبزي الذي يقول بأنك إذا أردت أن تحكم العالم فان لك أن تستخدم أقصى درجات القوة في ازاحة ، بل في إبادة خصومك !!

وفق هذا المنظور الذي يغيب فيه الكرم في التعامل بين الإنسان والإنسان ، شهد التاريخ البشري أبشع أنواع المذابح ... وليس أقلها بطبيعة الحال إبادة مائة وعشرين مليوناً من الهنود الحمر في الساحة الأمريكية ... وتهجير ملايين الزنوج الأفارقة بالقسر إلى الدنيا الجديدة وتعريضهم للموت والفناء ... والحربين العالميتين اللتين أتتا على ما يزيد عن السبعين مليوناً من القتلى ... وسباق التسلح النووي الذي كشر عن أنيابه بقنبلتي هيروشيما وناكازاكي اللتين أبادتا نصف مليون مواطن ياباني ... وفي دمار مفاعل تشير نوبل الذري السوفياتي وما أحدثه من خراب في الساحة الأوروبية ... وفي مجازر أمريكا وحلفائها في كوريا وفيتنام والصومال وافغانستان والعراق ... وفيما فعله الاستعمار القديم الذي تولت كبره بريطانيا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وهولندا وبلجيكا من قتل وإبادة ملايين الناس في أقطار العالم القديم ...

ليس ثمة مساحة للكرم ، والسماحة ، والعفو ، والمحبة ، والإخاء البشري على الإطلاق ... ليس ثمة سوى القتل والإبادة والخراب ...

ولا زلت أذكر يوم كنت أجلس إلى جوار أستاذ زميل لي من الدعاة الإسلاميين نستمع إلى مناقشة أطروحة للدكتوراه في كلية آداب - جامعة الموصل ... وإذا به يلتفت إلي فجأة ويقول : أليس أولى بنا ، ونحن نسعى لكسب الغربيين والخصوم إلى هذا الدين أن نلغي من كتاب الله كل صيغ التهديد بنار جهنم ووقودها الرهيب كي لا نستفزهم وندفعهم إلى الفرار !!

فما كان مني إلا أن أقول له : بدلاً من ذلك أيها الأخ الكريم : أليس الأولى أن نعرض هذه المساحات والتعاليم والممارسات المضيئة في ديننا وتاريخنا من أجل إغراء الآخر بالانتماء لهذا الدين ، فيما تشهده الساحتان الأوروبية والأمريكية وفق متواليات هندسية يوماً بعد يوم ؟! إن التلويح بالعقاب ، يعد وفق أحدث النظريات التربوية ، من الضرورات الأساسية ، لتقويم سلوك الإنسان المعوج ... ولكن إلى جانب هذا لا بد من تقديم صيغ السماحة والعفو والقبول والتقييم تلك التي تدفع الناس دفعاً إلى الانتماء إلى هذا الدين وإعادة صياغة حياتهم وفق مطالبه ؟

سكت الرجل ولم يحر جواباً ، وكأنه أحسّ بخطأ موقفه ذاك الذي يعكس الرؤية العوراء للكثيرين من العلمانيين وخصوم هذا الدين ، المتشبهين بمبدأ (إما هذا أو ذاك) بدلاً من مبدأ (هذا وذاك) !

العقاب والثواب ... وها هنا في صفحة الثواب نجد أنفسنا ونحن نقف قبالة هذا الكرم الإلهي الذي يتجاوز كل الخطايا والآثام ، ويعفو عنها ، ويخرج أصحابها من النار ، شرط ألا تمسّ نقطة الارتكاز الأساسية في هذا الدين ، وهي شهادة لا إله إلا الله ... حتى لو كان في قلب الواحد منا وزن شعيرة أو برة أو ذرة من خير .

يا الله على هذا الكرم الإلهي الذي لا حدود له والذي يعد المذنبين بالخالص فيطهرهم حتى الأعماق من أي إحساس بالخطيئة التي تمسك - عبر الأديان المحرفة الأخرى - برقاب الإنسان !!

ثم ها نحن نستمع لأبي هريرة (رضي الله عنه) وهو يحدثنا كيف أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : اللهم فأني مؤمن سببته فاجعل ذلك له قرينة إليك يوم القيامة ! ما هذا الكرم النبوي الذي يتصادى مع كرم الله (جلّ في علاه) عن الأبواب المفتوحة لأبناء هذه الأمة بتجاوز خطاياهم وكسب رضا الله وثوابه ... حتى أولئك الذين يظن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه سبهم فيدعو الله أن يكون ذلك لهم قرينة إليه يوم القيامة ؟ أية حساسية مدهشة هذه من لدن الرسول الإنسان (صلى الله عليه وسلم) وأي حرص على انقاذ اتباعه من هول يوم الحساب !؟

دين التناصح

(عن جرير بن عبد الله البجلي قال : اني أتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قلت أبايعك على الإسلام فشرط علي : والنصح لكل مسلم ، فبايعته على هذا) ...
فلو أن كل مسلم في هذه الدنيا شرط على نفسه النصح لكل من يعرفه ، أو يلتقيه ، أو يتعامل معه من اخوانه المسلمين ... وقبل هذا كله : النصح لنفسه ، أي ممارسة ما يسمى اليوم بالنقد الذاتي الذي يتحتم أن يلجأ إليه الإنسان في نهاية كل يوم فيسترجع ممارساته عبر ذلك اليوم بمفرداتها كافة ، ايجابيتها وسلبها ، من أجل أن يضيق الخناق على ثانياتها ، ويشمر عن ساعد الجد لملاحقتها في اليوم التالي لكي يزداد توحداً مع عقيدته ومطالب دينه ، ثم هو يمضي بعد ذلك الجهد المكافح إلى كل من يلتقيه من المسلمين لكي ينبههم إلى ضرورة هذا النقد لكل واحد منهم ... لو حدث هذا الذي يأمر به الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) :
أكان يمكن لحياتنا عبر صيرورتها الاجتماعية أن تشهد هذه الحشود المزدحمة والمتكاثرة كالسرطان من المشاكل والآلام والأخطاء والمنغصات ؟ وقبل هذا وذاك من ذلك الانقسام المحزن بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون !؟

ولطالما قدّم الفلاسفة والمفكرون مشاريعهم الإصلاحية من أجل تكوين المجتمع النظيف المتوحد السعيد ... وصمموا ، أو تصوّروا ، مدناً مقدسة ، ويوتوبيات مدهشة ، وجمهوريات فاضلة ... ولكن مشاريعهم تلك لم تتجاوز حدود الكلمات التي كتبت بها ، ولم تخرج من بين دفتي الكتب التي احتوتها إلى واقع الحياة ... وسرعان ما غدت قضايا متحفية لا تصلح إلا للبحث والدراسة والمقارنة دون أن تنزل إلى واقع الحياة لكي تعيد صياغتها كما يشتهي هؤلاء الفلاسفة والمفكرون ...

وتلك هي مشكلة الفكر الوضعي على مدار التاريخ ... إلا أن للدين موقف آخر على النقيض تماماً ... إنه بقوة الايمان ، والرقابة الإلهية الدائمة لنشاط الإنسان ، تلك التي لا تتدّ عنها صغيرة ولا كبيرة ... وبالوعد الإلهي الكبير بالثواب ... وبالتعاليم والكلمات التي ترسم لهذا وتدفع إليه ... بهذا كله يتحول المشروع الديني عموماً ، والإسلامي على وجه الخصوص ، إلى أمر واقع ، وجهد مؤكد ، وعمل منظور في واقع الحياة الإسلامية على مستوى الأفراد والجماعات ... على السواء ...

فبمجرد أن يصدر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمره بالتناصح بين المسلم والمسلم ، سرعان ما يصير أمره هذا تعليماً ملزماً ، وممارسة يومية ، ونشاطاً ميدانياً يمضي لكي يغطي حياة كل فرد ، ثم هو يتجاوز هذا إلى حياة الجماعة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها ...

يا الله ... كم ستكون الحياة الدنيا ، قبل الآخرة ، سعيدة ، جميلة ، وضيئة ، متوحدة ، متوازنة ، تنبض كل مفرداتها بالاستقامة ، والتوافق مع الفطرة البشرية ، والمضي على الصراط ... بحيث تغدو الحياة الإسلامية مثلاً يحتذى ليس في عالم المثاليات والأخيلة والتصوّرات التي يحلم بها الفلاسفة والمفكرون ، ولكن على مستوى الواقع اليومي في الذات ، في البيت ، في المدرسة ، في المسجد ، في المؤسسة ، في الشارع ، في المنظمة ، وفي كل منحنيات الحياة الاجتماعية ما دام أن هذه الحياة أريد لها منذ اللحظة الأولى ، لحظة مبايعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الانتماء لهذا الدين ، أن تكون قائمة على الملاحقة المتواصلة ، والجهد المكافح لشتى صنوف الأخطاء والالتواءات في سلوك المسلم الفرد ، وعبر العلاقات الاجتماعية عموماً ...

فلنجرب الالتزام الصادق بهذا التعليم الذي كم تبدت لنا خطورته والنتائج المدهشة المترتبة عليه ، على مستوى الأفراد والجماعات ... لنجرب ان نقول ، ونحن ننصت لهذا الحديث النبوي الشريف : نعم يا رسول اله ، اننا نبايعك على النصح لكل مسلم ، بل على النصح - قبل هذا - لأنفسنا ، ثم نشمر عن ساعد الجد لممارسة النقد الذاتي والملاحقة الاجتماعية ... ساعة بساعة ، ويوما بيوم ، وبالأسلوب المرن والمنفتح الذي ييسر ولا يعسر ، ويبشر ولا ينفر ، ويكسب ولا يطرد ... وبحدود الطاقة التي يملكها كل إنسان بما هو ميسر له ... وسوف نرى نتيجة هذا كله انعكاساً على واقع حياتنا الفردية والاجتماعية التي سيتشكل نبضها تحت مظلة الايمان ، والقوة الدافعة لهذا الدين الذي يعرف كيف يجعل الكلمات أفعالاً !!

ولسوف يظل الفلاسفة والمفكرون يبنون مدنهم الفاضلة ، ويوتوبياتهم السعيدة ، وجمهورياتهم المثالية ، دون أن تملك مشاريعهم كافة (القوة) الحقيقية التي تحولها إلى أمر واقع ، وتلزم الاتباع والمعجبين بتنفيذها في واقع حياتهم ...

تلك هي الثنائية الكبرى في تاريخ البشرية ، وذلك هو الخندق العميق الذي يفصل بين الفكر البشري الوضعي وبين المعطيات الدينية القادمة من عند الله سبحانه وتعالى ... ومن أجل ذلك شهدنا على مدى التاريخ تساقط كل النظم والعقائد والرؤى والتصوّرات الوضعية واحدة بعد الأخرى ... اشتراكية طوباوية ، شيوعية ، وجودية ، قومية شوفينية ، تفوق العرق الأبيض ... الخ ... الخ ...

فليس الأمر يقف عند حدود مشاريع المدن والجمهوريات الفاضلة، ولكنه يمضي لكي يقضم كل العقائد والمذاهب والمنظومات الفكرية ... ويخرجها من التاريخ ... ولا يتبقى ثمة إلا هذا الدين الذي يملك القدرة الدائمة على تكوين الدافع الفعال الذي يقدر على تحويل الكلمة إلى فعل ... في كل زمن ومكان ...

الأسلوب المرن

(عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال : كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهية السامة علينا) !!

وذلك هو ما تقول به أكثر النظريات التربوية جدة وحادثة ... فاننا بالإلحاح في فرض التعاليم واعتماد أساليب القسر في توصيلها للآخرين ، ومحاولة تكثيف معطياتها في مدى زمني قصير ... نقود بالضرورة إلى النفور منها والسامة من تقبلها ... وربما الهروب بعيداً في الاتجاه المعاكس لمطالبها وأهدافها المبتغاة ...

إن الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) يلتفت إلى هذه الحقيقة النفسية التربوية فيعتمد - بدلاً من ذلك - أسلوب (الموعظة في الأيام) ... أي الأناة والصبر ومدّ الفترة الزمنية لقبول التعليم ، والاقتناع به ، وتمثله وتحويله إلى أمر واقع في السلوك البشري ...

ومن أجل ذلك ... من أجل كراهيته للصيغ القسرية التي تبعث على السامة ، كسب (صلى الله عليه وسلم) أجيالاً من المنتمين الصادقين ، المتوحدن بين القول والسلوك ، وبين الكلمة والفعل ، وبين التعليم والممارسة ، ولها قدرت تلك الأجيال من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين على أن تكون نماذج بشرية عالية يحتذى بها في كل صغيرة وكبيرة من ممارسات الحياة ، وهموم الإنسان ، ومطامح الجماعة ... بل أن تقدر على (الإنجاز) الكبير الذي يخترق حيثيات الزمن والمكان ، ويحقق ما يشبه المستحيل في ميدان الفاعلية التاريخية ، سواء في سياق الدعوة ، أم الحرب والفتح ، أم في بناء الدولة والمؤسسات الحضارية.

وذلك ما يحدثنا به تاريخ تلك الأجيال الفريدة التي عرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كيف يرببها (بالموعظة في الأيام) فيبعدها عن أي إحساس بالملل والنفور والسامة ، ويدفعها إلى تقبل تعاليمه وتمثلها وتحويلها إلى واقع حياتهم اليومية بمفرداتها وتفصيلها كافة.

إن أسلوب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذا يذكرنا بذلك الحوار الذي دار بين الخليفة الراشد الخامس (عمر بن عبد العزيز) وبين ابنه ...

الابن : ما يؤمنك في منامك وقد رفعت إليك مظالم لم تقض حق الله فيها ؟

الأب : يا بني ان نفسي مطيتي ، إن لم ارفق بها لم تبلغني !! إنني لو اتعبت نفسي وأعوانني لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا ، وإنني لاحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي احتسب في يقظتي. إن الله جلّ ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملةً لأنزله ، ولكنه أنزل الآية والآيتين ، حتى استكن الايمان في قلوبهم.

الابن : مم تخاف ؟

الأب : يا بني ... ما مما أنا فيه أمرٌ هو أهم إليّ من أهل بيتك (الأمويين) ، هم أهل القدرة والعدد ، وقبلهم ما قبلهم. فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره علي. ولكني أنصف الرجل والاثنتين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجع له !!

وفي موقف آخر يسأل الابن أباه : لماذا تؤخر بعض الأمور ؟ فيجيب الأب : والله ما استطيع أن أخرج لهم شيئاً من الدين إلا ومعه طرف من الدنيا استلين به قلوبهم خوفاً من أن ينخرق علي منهم ما لا طاقة لي به !

ويوماً قال له ابنه : يا أمير المؤمنين انقد لأمر الله وإن جاشت بي وبك القدور ... فماذا يكون جواب الخليفة المرن ؟ : يا بني ، إن بادعت الناس بما تقول أحوجوني إلى السيف ، ولا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف ، لا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف !!

وفي الحالتين ... في حالة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع التعاليم وفي حالة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، نلتقي هذا الوعي المدهش لأساليب التربية ، والشفافية الفائقة في التعامل مع مفرداتها ومطالبها كافة.

لقد عرفت في حياتي العديد من الأشخاص الذين ارتبطوا يوماً بالنشاط الدعوي لكنهم ما لبثوا ، ربما بسبب (كراهيتهم للسامة) و (عدم تخولهم بالموعظة في الأيام) ، كما كان يفعل رسولنا (صلى الله عليه وسلم) أن فكوا ارتباطهم بالدعوة ... لا بل ان بعضهم تحرك في الاتجاه المضاد فأصبح خصماً لدوداً لها ... وبذلك لحقت بالنشاط الدعوي خسارة مضاعفة ما كان لها أن تكون لو تم التعامل معهم بالرفق والأناة وبالموعظة في الأيام ...

التوحيد ... ذلك التأسيس الكبير ...

(عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ونفسه).

(وعن أنس (رضي الله عنه) قال : كان معاذ رديف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الرحل ، فقال : يا معاذ ! قال : لبيك يا رسول الله وسعديك. قال : يا معاذ. قال : لبيك يا رسول الله وسعديك. قال : يا معاذ. قال : لبيك يا رسول الله وسعديك. ثلاثاً. قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار قال : يا رسول الله : أفلا أخبر به الناس فيستبشرون ؟ ... وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً !!

وما دام الأمر كذلك فدعوني - إذن - أحدثكم عن جوانب فحسب من قيمة التوحيد ... إنه أثنى جوهرة نملكها في هذا العالم ... ذلك الذي تتداح دائرته باستمرار لكي تغطي كل مفردة في حياة المسلمين المعرفية والسلوكية على السواء ... إنه نقطة الجذب والاشعاع معاً ... القلب الذي يعطي ويأخذ ، يضح ويتلقى ...

بما أن التوحيد الذي ينبثق عن الشهادة التأسيسية الكبرى (لا إله إلا الله) هو المرتكز والهدف ، فانه سيدخل منذ اللحظة الأولى في الزمن ، وسيمتد في المكان ، إلى كل جزئية من جزئيات النشاط الحضاري لكي يطبعه بهذا التقابل المؤثر الفعال مع الله الواحد جلّ في علاه ، ويصبغه بكلمة الله التي يأخذ عنها المسلم منهاج العمل ويتوجه إليها في الصيرورة والمصير ... ولسوف تتأكد هذه الخصيصة المحورية لدى مقارنة الحضارة الإسلامية بأية حضارة أخرى، دينية محرفة أو وضعية ... إننا هنا بإزاء عودة إلى الجذور ... إلى الحقيقة الكبرى في أقصى درجات وضوحها وفاعليتها وتألقها ... ان الحضارة الإسلامية سيقدر لها أن تمنح الفعل البشري وهو يعمل ، فرصته في أن يستعيد وظيفته الأصيلة ... خليفة في هذا العالم ، مستعمر الله وحده فيه ...

في التاريخ ، في الجغرافيا ، في النفس ، في المجتمع ، في الفلك ، في الطب ، في الهندسة ، يعبر التوحيد الإسلامي عن نفسه ... في المعادلات الكيماوية والجيوب واللوغارثيمات ... في المنائر الوثائق المتفردة الصاعدة إلى السماء ، وفي القباب المتكورة على الخشوع والتسليم ... في كلمات الشعراء ولمسات المعماريين ، يتجلى التوحيد كما لم يتجل في أية معرفة أخرى. لقد منح التوحيد نشاطنا الحضاري عبر التاريخ وحدته المتمثلة ، وشخصيته المتفردة ... شدّ جزئياته وتفاريقه في انساق واحدة تتجه خيوطها جميعاً صوب الهدف الواحد ، وتتبنق عنه ، لكي ما يلبث النسيج في نهاية الأمر ، أن يجيئ معبراً بلسان الحال عن صنع يدي نساخ واحد.

على مستوى الدافع يضع التوحيد العالم والمفكر المسلم قبالة الله سبحانه وتعالى مسؤولاً عن قدراته التي أودعه الله إياها ... ساعياً لأن يستثمرها حتى حدودها القصوى ... على مستوى الهدف تصاغ معطيات هذا السعي المعرفي لكي تكون متوافقة مع كلمة الله ، متجاوزة ، ما وسعها الجهد ، أي قدر من الثنائية أو الازدواج.

وفي كل الأحوال يغدو الكون والعالم والطبيعة من صنع الله القادر المهيمن المبدئ المعيد ، ويتحرر المسلم من سائر الخرافات والصنميات التي تلبستها الطبيعة والعالم في المذاهب والأديان المحرفة الأخرى ... فعرقلت انطلاقه الحرّ للكشف عن السنن والطاقات والنواميس ... ان التوحيد يضع المسلم حراً في مواجهة الكتلة الكونية ، فاعلاً مريداً ... يضعه فوق هذه الكتلة سيداً على الخلائق ... ومن ثم يصير التوحيد فرصة كبرى للتحقق بالمعرفة ، للاستزادة منها ، من أجل الإمساك بتلابيب العالم والطبيعة والحياة ... والتقرب أكثر إلى الله ...

ودائماً كان التوحيد هو صمام الأمان عبر تعامل الحضارة الإسلامية مع الحضارات الأخرى ، فلا تأخذ ، في الأعم الأغلب ، إلا ما ينسجم وإياه ، ولا تمرّر إلا ما يسمح هو بتمريره إلى شبكة الحضارة الإسلامية ... وها هنا أيضاً أعطى التوحيد الفرصة لهذه الحضارة بأن تتحقق أكثر بوحدتها وخصوصيتها ، سيما إذا تذكرنا أن الحضارات الأخرى ، كانت تنبض في ايقاعها ، في كثير من الأحيان ، أصوات الآلهة والصنميات والثنائيات والأضداد.

وكما يقول غارودي ، القادم من نسيج حضارة الغرب التعددية ، في كتابه (وعود الإسلام) : " لا إله إلا الله هذا الاثبات الأساسي للإيمان الإسلامي " وهو يعرف جيداً ما الذي يعنيه هذا الاثبات على مستوى المستقبل البشري ، وما الذي يعنيه - بالمقابل - على مستوى التاريخ !!

وأتذكر كذلك عبارة غارودي في كتابه ذاك : " لا إله إلا الله ... هذه الشهادة الكبرى التي لو أحسن التعامل معها لرحزت الجبال عن مواضعها " ... فما الذي كان أو يكون أو سيكون قبالة (لا إله إلا الله) ؟ لا شيء !!

إننا إذا أردنا أن نكون شيئاً في هذا العالم ... ان نكون كفاء إنسانيتنا ودورنا في الأرض ... كفاء وجودنا ومصيرنا في رحلة الحياة الدنيا ، وفي الآخرة ... فان علينا أن نتحقق حتى آخر حجية في تكويننا الأدمي ... بلا إله إلا الله ... وإلا فهو الوهم والزوال الذي لا يؤول إلى شيء على الاطلاق ... ظلال لا عمق لها تتحرك على سطح الزمن والمكان وتغيب دون أن تخلف أثراً ...

اننا إذا أردنا أن نكون حاضرين في هذا العالم فإن علينا أن نتحقق بلا إله إلا الله ... بكل ما تنطوي عليه الشهادة من معنى ... تلك هي الحقيقة الكبرى ... الحقيقة الأولى والأخيرة التي تعلمنا إياها شهادة لا إله إلا الله ...

أعرفتم لماذا يكون أسعد الناس بشفاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة ... من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ونفسه !؟

لا تكذبوا علي !!

(عن علي - وكذا عن أبي هريرة (رضي الله عنهما) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : لا تكذبوا علي فانه من كذب علي فليتوباً مقعده من النار) !!
نعم ... إلى هذا الحد يا رسول الله ...
فان الكذب ... مطلق الكذب ، يعد بشهادة الجميع واحداً من أخس الأعمال وأشدّها حقارة ... فكيف إن كان على رسول الله ؟

كيف ... والسنة النبوية ، والحديث الشريف يعدان الركن الثاني ، بعد كتاب الله ، لهذا الدين الأخير الذي أريد له أن يكون خاتم الأديان إلى يوم القيامة ؟!
هل ثمة تزيف أكبر من هذا التزيف الذي يحكي على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أحاديث ما قالها ، فيحشرها جهلة الناس ممن لا خبرة لهم بعلوم الحديث وضوابطه ، في صلب هذا الدين لكي ما تلبث ان تصبح بمرور الوقت ، وتكرارها على الألسنة ، جزءاً من بنيانه ... وحاشا لرسوله (صلى الله عليه وسلم) ...

وما أكثر الكذبة عبر تاريخنا الطويل ... وما أشد المغريات التي تدفع ضعاف النفوس ، بل حتى أولئك الذين تخيل إليهم تقواهم ويدفعهم إيمانهم المزعوم ، على ادعائها على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بحجة تليين قلوب الناس ، وترقيقها ، وسوقهم إلى المزيد من الطاعات !!

ولكن عبارة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المنذرة ، المتوقعة : لا تكذبوا علي فان من كذب علي فليتوباً مقعده من النار ، تقف كسد منيع قبالة هذا الاغواء المضلل وتكنسه من الطريق ...

بم ؟

بجهود أولئك العمالقة الكبار من علماء الحديث وشيوخه ورجالته المخلصين ، من أمثال البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي وابن ماجه وابن حنبل ... وغيرهم كثيرون لا يكاد يحصيهم العد ، انتشروا على مدى التاريخ الإسلامي ، في كل بقعة وعبر كل زمن ... ينقحون ، ويتابعون ، ويغربلون ويضعون القواعد والمعايير ، من أجل عدم قبول أي حديث نبوي إلا بعد تمريره بقنواتهم العلمية الدقيقة ، وعبر جهود كبيرة افترست أعمارهم حتى لحظاتها الأخيرة ...
نعم .. وبكل تأكيد ... فالكذابين كثيرون ، ودوافع الإغراء بالكذب كثيرة هي الأخرى ... بعضها طائفي مقيت ، وبعضها لتحقيق ميل أو هوى ، وبعضها الثالث للحصول على مكسب أو منفعة ... وبعضها الرابع بدافع من إيمان بعض الناس بأن وضع هذا الحديث أو ذاك سيزيد من

مساحة الايمان في هذا العالم وسيغري الآخرين بممارسته والانتماء إليه ... حتى ليقال أن المدعو (ابن مريم) وحده وضع في العراق آلاف الأحاديث الكاذبة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ...

وكلنا يعرف ويتابع تلك الحملات المسمومة ضد حجية السنة النبوية ومصداقيتها والتي بدأها العديد من المستشرقين وتابعهم فيها أذئابهم من المسلمين أنفسهم ، ممن حسبوا على جغرافية عالم الإسلام وهم لا يحملون شيئاً ولو ضئيلاً من قيمه وتعاليمه ، بل وحتى بديهياته ومسلّماته ...

تلك الحملات التي أريد لها التشكيك بمدى سلامة ما نقل إلينا من أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وبالتالي هدم الركن الثاني الذي تقوم عليه عقيدة الإسلام وشريعته وتعاليمه بعد كتاب الله ...

انها محاولة خبيثة وماكرة لزعزعة بنيان هذا الدين الذي لن يغلبه أحد بإذن الله ... وهم يبنون مقولاتهم الخبيثة تلك على ذلك السيل الطامي من الأحاديث الموضوعة على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من قبل أصحاب الميول والمصالح والأهواء ، دونما تمييز بينها وبين تلك الأحاديث الصحيحة التي سهر على فحصها وتوثيقها ثلة مباركة من رجال الحديث وعمالقته الكبار في الماضي والحاضر وأكدوا مصداقيتها المطلقة.

وتظل بوابة السوء هذه تنفتخ دخانها وخبثها ... ونقطة انطلاقها دائماً هي (الكذب على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)) ، ذلك الذي حذر منه وكأنه يرى بأمر عينيه ما سيلحق بشبكة أحاديثه المترعة بالقيم والتعاليم والاضاءات القيمة لمعطيات القرآن الكريم ... من عواصف وأنواء ...

ومن أجل ذلك توعده كل الذين يمارسون هذه الخطيئة الكبرى بأنهم قد تنبؤوا مقعدهم من النار ... فليس ثمة من تهديد لوقف هؤلاء الدجالين عند حدهم أكثر من أن تدس أنوفهم في نار جهنم ورمادها !!

لتركبن طبقاً عن طبق !!

(عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال : صلى بنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) العشاء في آخر حياته ، فلما سلم قام فقال : أرايتم ليلتكم هذه فان على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد !!) .

صدقتم يا رسول الله وأنت تتحدث عن أجيال الناس التي يطوي بعضها بعضاً ... ويدفن بعضها فوق بعضها ... صدقت وأنت تذكر أصحابك ، عبر لحظاتك الأخيرة ، بقوة الزمن ، وجبروته ، وبطشه ، وكيف أن سكينه الحادة تمضي لكي تقترس الناس جميعاً ... لا تستثني منهم أحداً ... فما أن يمضي قرن من الزمن ، وربما أقل بكثير ، حتى يكون جميع الأحياء الذين يتخبطون على ظهر الأرض ، قد أصبحوا تحت ترابها ، وتهياً منجل الموت لكي يقضم جيلاً آخر من الناس لن تتجاوز أعمارهم المائة عام بأية حال من الأحوال ... اللهم إلا في حالات استثنائية لا يقاس عليها ... والاستثناء كما هو معروف يعزز القاعدة ولا ينفهها ...

صدقتم يا رسول الله وأنت تهز عقول الناس على مدار التاريخ ... وتحرك ضمائرهم ... وتتفخ في أرواحهم وأفئدتهم علمهم ينتبهون إلى هذه المفارقة المحزنة .. انهم جميعاً مهما طالت بهم الأعمار سيؤولون في نهاية الأمر إلى مغادرة مواقعهم في الحياة الدنيا ، وينزلون مرغمين ، وحتم أنوفهم ، إلى الحفر الضيقة لكي يتلقوا الحساب ... فما من أحد يفرّ من هذا المصير ... ما من أحد يخرج على قانونه الصارم أو يتمرد عليه ... الكل سواء ... الكل محكومون بهذه النهاية المحتمة القادمة إليهم عبر عشر سنين أو عشرين أو ثلاثين أو سبعين أو تسعين ... ولكنها لن تصبر عليهم حتى يتجاوزوا المائة من السنين ... أبداً ... لن تصبر عليهم ...

إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يرسم ها هنا بكلماته الموجزة هذه مسيرة الحياة الدنيا ، ويؤشر على مغزى وجودنا في هذا العالم الذي كتب علينا أن نغادره شئنا أم أبينا ... وكأنه يقول للظلمة والطواغيت والفجرة والمترفين وعشاق المال والمناصب والمتهافتين على الشهوات الدنيا ... انتبهوا أيها الناس ... أفيقوا ... فان تكالبكم هذا على الإمساك بتراب الأرض ، وانشابكم المخالب والأظفار في ترابها وعفنها ولزوجتها لن يؤول إلى شيء ... ما دتم جميعاً ، بعد خمسين عاماً أو مائة ، سترحلون ... ستغادرون كل ما حرصتم على جمعه والامساك به ، عضضتم عليه بالنواجذ ، وتجاوزتم من أجل ذلك كل مطالب إنسانية الإنسان التي تعلق به على الصراصر والحشرات ... تلك التي يقتل بعضها بعضاً ويفتك بعضها بالبعض الآخر ... من أجل أن تحيا دقيقة مضافة من الحياة ، في نقرها الضيقة المعتمة السوداء ...

أيها الناس انتبهوا ، قبل أن يجيئكم منجل الموت ويدس أجسادكم في التراب دون أن يسمح لأي منكم ... لأي منكم على الإطلاق ... أن يأخذ معه إلى الحفر التي سيدس فيها أي شيء على الإطلاق من المال أو الوجاهة أو التسلّط ... مما بذل حياته ، ودينه ، وشرفه ، من أجل لها وتكديسها والاستعلاء بها على الآخرين .

في كتاب الله ذلك القسم المؤثر ، المترع بالجمالية والتعاليم ، حيث نقرأ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّقِيقِ ﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ تَرَكِبْنَ طَبَقًا عَنْ طَبِقِ ﴿ (سورة الانشقاق : الآيات ١٦-١٩) ...

يا الله على هذه اللوحة الرائعة التي يقسم بها رب العزة أنه ما من جيل من الناس إلا ويجد نفسه مسوقاً إلى مطحنة الموت ... مدفوناً في تراب القبور ... طبقاً عن طبق ... جماعة أثر أخرى ... وجيلاً بعد جيل ...

من أجل ذلك ألقى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تعليمه ذاك ، بعد العشاء ، في آخر حياته ... وهي اللحظات التي يشف فيها الإحساس البشري وينفتح الوعي على حقائق الوجود ، لكي يذكر الناس جميعاً ... في كل زمن ومكان ... لكي يذكرنا نحن أبناء القرن الحادي والعشرين الذين جعلنا الدنيا أكبر همنا ، ومبلغ علمنا ، ورحنا نتسابق على أشياءها التافهة ومكاسبها الزائلة ونركض وراءها ركض الوحوش في البراري دون أن نقبض على شيء ... فان هي إلا دورة الزمن تدور فترغما على أن ننفض أيدينا من كل شيء ... ونغادر الدنيا وليس معنا سوى الأكفان ...

يذكرني هذا بأخي (نبيل) (رحمه الله) الذي اختطفه الموت في عزّ الشباب ، كيف أنه قبل وفاته بسنوات قلائل وقف لكي يلقي محاضرة في مجال تخصصه الذي أبدع فيه ، عن (فيروس الحاسبات) بمناسبة العيد الفضي لتأسيس جامعة الموصل (عام ١٩٩٢م) وكيف أنه حوّل محاضراته تلك ، رغم علميتها الصرفة ، إلى مقطوعة موسيقية من الأداء الفني الجميل شدد انتباه كل الموجودين في القاعة ، وكيف أنه وهو ينهيها قال مخاطباً المستمعين كافة : (عقبال اليوبيل الذهبي لجامعتكم العزيزة هذه) !

فكأنه أراد بذلك أن ينبههم إلى حقيقة الحياة الدنيا ... وإلى سرّها العجيب ... انهم جميعاً يومذاك ... يوم يحل العيد الذهبي لجامعتهم ، بعد خمس وسبعين عاماً ، قد أصبحوا جميعاً تحت التراب ...

وشاء الله (سبحانه وتعالى) أن يضرب به المثل على مقولته الصادقة تلك ... إذ ما لبث بعد بضع سنوات أن أختطفه الموت ... رحمه الله ...

رفض للوثنية

(عن عائشة (رضي الله عنها) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال في مرضه الذي مات فيه : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد قالت : لولا ذلك لأبرزوا قبره غير أنني أخشى أن يتخذ مسجداً) ...

إنه الرفض المطلق لعبادة الأجساد ... للوثنية التي تعرف بالمكر الشيطاني كيف تتسلل إلى الوجدان البشري فتقوده إلى الضلالة ، وتصده عن التوحيد المطلق الذي يرفض أي قدر من التجسيد ...

وتلك هي مهمة أي دين في هذا العالم ... يهودياً كان أم نصرانياً أم إسلامياً ... أن يرتفع بالإنسان إلى آفاق التجريد الذي ينأى بالحس البشري عن أية صيغة من الصيغ التي تريد سحبه إلى التجسيد ...

وما كان انحراف الأديان السابقة على الإسلام إلا من هذه البوابة المغطاة بألف حجاب ولكنها إذ تنكشف لكل ذي عينين انما تنكشف عن الشرك والوثنية ... وإلا فكيف يصبح العزيز ابناً لله وحاشاه ؟ وكيف يصير المسيح رباً يمارس قيمومته على الحياة البشرية أسوةً بخالقه الواحد الأحد (سبحانه وتعالى) ؟ وإلا كيف يهرع بنو إسرائيل إلى إغواء السامري الذي صنع لهم عجلاً جسداً له خوار فيعبدونه من دون الله ؟ وإلا كيف تغدو أجساد الموتى من النبيين والقديسين والشهداء ، أضرحة للتبرك والتقرب والتوسل والعبادة ؟!

إن الإنسان الذي هو مزيج مدهش من نفخه الروح العلوية ولزوجة الطين السفلية ، طالما سحبتة الثانية صوب الشرك والتجسيد ... وصدته عن المضي قدماً إلى فوق ... إلى سماوات التجريد وفضائه الواسع الذي يعرف كيف يحزّر الإنسان ، ويفجر طاقاته الخلاقة ، ويقفه - بالإخلاص المطلوب والفاعلية في أقصى درجاتها - قبالة الله الواحد (جلّ في علاه) ...

إنها ثنائية الصعود والهبوط ، ومأساة البشرية التي كتب عليها أن تعاني الصراع الأبدي بين القطبين ... والقلّة القلة هي التي تقدر على الاستجابة للتحدي وتواصل الصعود متشبثة بمفاهيم التوحيد التحريرية قبالة أجيال من الناس انساقوا وراء اغواء الهبوط السهل إلى دركات التجسيد والشرك والوثنية ...

ومن أجل هذا كانت الأديان تنتزل ، الواحد اثر الآخر ، ويبذل أنبياءها جهودهم القاسي من أجل تعديل الوقفة الجانحة والعودة بالبشرية إلى الصراط ... ومن أجل هذا جاء الإسلام ، تلك

الرسالة الخاتمة ، لكي يكون الصوت الأخير الذي يدعو إلى التوحيد ويقا تل الشرك والوثنية في أقصى حالات تكشفها وفي أشد أوضاعها خفاءً وتعقيداً ...

ولقد كانت إحدى علامات ذلك الانحدار المرفوض صوب الوثنية ، من بين مئات العلامات والممارسات ، أن تتخذ قبور الأنبياء (عليهم السلام) مساجد ، يزورها المؤمنون الذين أريد لهم أن يتمخضوا لعبادة الله الواحد مصداقاً للآية الكريمة ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ

أَحَدًا ﴾ (سورة الجن : الآية ١٨) ... ولكن هؤلاء جاءوا - ابتداء - لكي يدعوا مع الإله الواحد

أنبياءه ، ويتوسلوا إليهم ، ويتبركوا بهم ، ويقدموا النذور لهم ... بل ان ينفصلوا بمشاعرهم شيئاً فشيئاً عن التعلق بالله إلى الالتصاق بأجساد أنبيائه الكرام !!

وبمرور الوقت يزداد هذا الانفصال ، ثم ما تلبث أن تتصل به جملة من الطقوس والعبادات والتقاليد الخاطئة ، حتى تصير ركاماً يغطي على ألق الأرواح التي خنقتها تلك الطقوس والتقاليد فانطقات فيها جذوة التعبد الحق ، والتوجه بالعبادة والدعاء إلى الله الواحد (جلّ في علاه) ...

يتضاءل النبض الروحي لهؤلاء حتى يكاد يغيب ولا يتبقى إلا التشبث بقشور الشكليات والطقوس الميتة التي تثير القرف والاشمئزاز ...

بل ان الأمر تجاوز هذا كله إلى ملء المعابد والكنائس بمنظومة من الأصنام المجسدة التي تمثل هذا النبي أو ذاك ... وهذا القديس أو ذاك ... وبشبكة من الايقونات التي تكاد تسد الطريق على الداهبين إلى المعابد والكنائس ، والتي أضفيت عليها حالة من التقديس بحيث أصبحت كأنها الهدف الأساس من المجيء إلى المعبد والكنيسة لكي تؤدي إليها فروض الطاعة والتعبد والتقديس ...

ألى هذا الحد يكون الانحدار بالمفاهيم الدينية المحرفة إلى دركات الصنمية الفاضحة والمكشوفة ؟ ألى هذا الحد يكون التنازل الطوعي عن آفاق التوحيد الرحب الذي جاء الأنبياء جميعاً لكي يرفعوا إليها المنتمين ... فيحرروهم ، ويمضوا بهم من الظلمات إلى النور ...

ألى هذا الحد ؟!

سمحاً إذا باع ... سمحاً إذا اشترى

(عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال :
رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) ...

وعلى مدى سنوات طويلة من حياتي كنت إذا نزلت إلى السوق للتبصع ... لشراء الفاكهة والخضار والحاجات المعاشية ، أحمل معي همأً يومياً هو ألاّ أتعرض للغش من قبل البائعين ... وقبل هذا ألاّ اسمع منهم كلمة واحدة مما يخدش مشاعري ... ولكن تحقيق مطلب كهذا يبدو أنه كان من قبيل المستحيلات ... إذ ما تلبث وأن تعود إلى بيتك محملاً بأكياس البضائع والمشتريات أن تجد البائع قد سبقك في عملية انتقائها فوضع فيها بضاعة مدسوسة ... وعندما ترجع إليه في اليوم التالي معاتباً إياه بأقصى كلمات اللطف والسماحة ، ينفعل ويضيف إلى غشه ما هو ألعن وأشد مرارة : إنه يكذب عليك ويقسم بالله ، وباغظ الايمان ، أنه لم يمارس معك هذا الذي تتهمه به من الغش والتدليس !!

يتكرر هذا يوماً بعد يوم ، مع المشتريين كافة ، لا يكاد ينجو منهم أحد ... بل إن الأمر تجاوز هذا إلى نوع من الغش الخبيث الذي يقوم أصحابه على عرض بضاعتهم بطريقة مزدوجة : أن يضعوا صنفها الجيد في واجهتها ويحشروا فيما وراءها أكداً البضاعة التالفة التي أصابها الخراب ... وعندما تبدأ عملية الوزن لا يضعون في كفة الميزان إلا تلك البضاعة المدلسة والمعطوبة ... يا الله ... إلى هذا الحدّ يبلغ سوء التعامل بين الناس في ديارنا الإسلامية بينما هناك في ديار الغرب (الكافر) وفي أسواقهم المركزية ، تعرض البضاعة مكشوفة بكاملها أمام المشتريين ، فينتقون منها ما يشاءون ، وقد يقتضي هذا وقوفهم عندها مديات زمنية طويلة دون أن يمنعهم أحد من القائمين على شؤون السوق !!

أهكذا تنعكس الحالة ... فننسى وسط حمى الرغبة في الربح غير الشريف تعاليم ديننا ونبينا ، بينما يعمل بها ويتشبث الغربيون قبل أن يقرأوا عنها أو يعرفوا شيئاً مما أرادت أن تقول ؟ فماذا لو أننا التزمنا هذه التعاليم في مفردات حياتنا كافة ، الا نكون قد تفوقنا على الغربيين في ممارساتنا وعاداتنا وتقاليدنا ، فعشنا أجمل حياة ، وأسعدنا ، وأنظفها ؟

ألا نكون قد حولنا ديننا هذه المترعة بالتعاسة والغش والنكد والشروخ والرغبة العاتية بالربح السريع ، بعيداً عن الالتزام بمنظومة القيم الدينية والخلقية والإنسانية ، بل بأية منظومة على

الاطلاق ... حولناها إلى جنة سعيدة على الأرض ، مترعة بالغبطة والتوافق والمحبة والانسجام
... قبل أن ننتقل إلى الحياة الأخرى!؟

وعبر تعاملتي مع البائعين على مدى عمري لم أحاول يوماً أن أفصلهم في سعر البضاعة،
كنت أدفع لهم ما يريدون دون أي قدر من الإلحاح لتخفيض قيمة بضاعتهم ... كنت (سمحاً)
وأنا أمارس الشراء ، التزاماً بتعاليم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكنت أرجو بذلك أن يمارسوا
هم الآخرون السماحة معي في البيع ، وأيضاً التزاماً بتعاليم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ...
وكنت أجد من بعضهم هذا الذي أرجوه ، ولكن الكثير منهم للأسف الشديد كانوا يتحركون
في الاتجاه النقيض الآخر حيث تغيب السماحة في تعاملهم ، فيكون الغش والتدليس ... وكنت
- فضلاً عن هذا - اتعامل بالسماحة نفسها مع كل العمال الذين يأتون لداري لإنجاز هذه
المهمة أو تلك ، فأعطيهم الأجر الذي يطلبون ... ثم أضيف عليه ... فيما يجعلهم يغادرون
الدار وهم سعداء راضون وأنا أكثر منهم سعادة ورضا ...

فماذا لو أننا جميعاً ، في ديار الشرق ، نفذنا بالجد المطلوب هذا الذي أمرنا به رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) ... فكان كل واحد منا سمحاً إذا اشترى ، وكان كل بائع فينا سمحاً إذا
باع؟! إن رحمة الله سبحانه وتعالى ستمطر علينا حينذاك بالخير العميم بائعين ومشتريين ...
والأمر نفسه ينطبق على القضاء ، وهو أشد خطورة بكثير من أعمال البيع والشراء ...
ذلك أننا في هذه الساحة نتعامل مع الحق الضائع ، ونسعى لاسترداده ، سواء كان مفترسه هذا
الطرف أو ذاك ... فلو أن الطرفين التزموا السماحة وهم يتخاصمون ... فاعترف هذا بذنبه ،
وتنازل ذاك عن جانب من حقوقه ... بدلاً من إعلان حالة الحرب بين الطرفين ، ومن وراء كل
طرف محامون ومدعون عامون لا يراعون - إلا قليلاً منهم - في الله حرمة ، ولا يلتزمون مفاهيم
الحق والعدل ... أكان يمكن أن تمضي حياتنا المعاصرة التعسة النكدة هذه التي نحياها إلى هذا
الحدّ البشع من النكد والتعاسة والتخاصم والشقاء ... ومن افتراس الحقوق وتضييع الواجبات ؟
(صلى الله تعالى عليك) أيها المعلم الكبير ... يا رسول الله وأنت تتقدم بتعاليمك
القيمة هذه لا لشيء إلا لبناء الحياة البشرية العادلة ، السعيدة ، الوضيئة ، التي لا ظالم فيها ولا
مظلوم ...

سمحاً إذا باع ... سمحاً إذا اشترى ... سمحاً إذا اقتضى ... وسوف تظل هذه السماحة
نجوماً بعيدة ... بعيدة في أعماق السماوات ، نطمح إليها ونتمناها ... ولكن تنزيلها على واقع
حياتنا الأرضية البائسة مستحيل ... مستحيل ... تقف دونه ألف عقبة وعقبة مما تصنعه نزوات
الإنسان ...

حرب على الظلم

(عن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : الظلم ظلمات يوم القيامة).

(و عن سعيد بن زيد (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : من ظلم من الأرض شيئاً طوقه الله من سبع أرضين) ...

بهذه الكلمات الموجزة في مفرداتها ، الخطيرة في دلالاتها ، يختصر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قضية الظلم في هذا العالم ... انها تحمل أشد صيغ التنديد والتخويف ... فهي ظلمات يوم القيامة ... وهي التطويق للظالم من سبع أرضين ... أي من جهاته كافة ... فلا يقدر على الإفلات ، ويظل اسيراً في مصيدة الظلمات ، محاطاً بالأسلاك الشائكة من كل مكان ...

أي إنسان يستمع لهذين الحديثين الشريفين اللذين ينددان بالظلم ، ولا يترجف خوفاً وهلعاً من ذلك المصير الأسود الذي ينتظر الظالمين !؟

إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ها هنا يستخدم أشد الصيغ المرعبة لتخويف الناس من ممارسة الظلم ... ومن أجل بناء حياة إنسانية عادلة سعيدة آمنة مطمئنة ... يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ... لا ظالم فيها ولا مظلوم ...

ومنذ فجر التاريخ البشري ، وحتى اللحظات الراهنة وإلى أن يقوم الحساب ... ظل الكتاب والفلاسفة والمفكرون والأدباء والمشرعون يكتبون عن الظلم بصيغته كافة ، منددين به وبأولئك الذين يبررونه أو يمارسونه ... آلاف الكتب والقصائد والتشريعات ومئات المؤلفات الفلسفية ، دونت عن الظلم في محاولة من كاتبها لوقفه عن الاستمرار في افتراس الحياة والأحياء ... ولكن دون جدوى ...

استمر الظلم يفتك بالناس والحياة ... وظلت هذه تعاني من ثنائية الظالم والمظلوم ، تلك التي غطت الحياة بكل مفرداتها من أقصاها حتى أقصاها ...

ومنذ طوعت لقاويل نفسه بقتل أخيه هابيل ظلماً وعدواناً ، وحتى اللحظات الراهنة حيث يتم اغتيال الجماعات والشعوب بالقنابل الذرية والصواريخ عابرة القارات ، والقنابل التي تفرغ المغارات من الأوكسجين ... وبالأسلحة البيولوجية والكيميائية والبيورانيوم المخضب الذي يقتل في العراق وحده ، منذ غزوه على يد أمريكا عام (٢٠٠٣م) عشرات الآلاف من الأطفال سنوياً ... مروراً

بإبادة مائة وعشرين مليوناً من الهنود الحمر على يد المستعمرين الانكلوسكسون في الساحة الأمريكية ... وبقتل ما يقرب من نصف مليون مواطن ياباني في هيروشيما وناغازاكي بإلقاء قنبلتين ذريتين عليهم ... وبإبادة مليوني فيتنامي ومئات الآلاف من الأفغان والعراقيين ... هذا إلى إلقاء الشركات الرأسمالية الكبرى آلاف الأطنان من القمح والرز والبن في عرض البحر وإحراق الآلاف الأخرى ... خشية من انخفاض أسعار مبيعاتها ، بينما هناك في الطرف الآخر من العالم ملايين الجوعى والمعدمين والهياكل العظمية التي تن من فتك الجوع والمرض وانتظار الموت ... لكي يخلصهم من المعاناة التي تعجز الأقلام عن تصوير ما تفعله بالإنسان ...

ظل منطق الظلم يحكم العالم ... المنطق الهوبزي الذي يبرر استخدام أقصى وتأثر القوة والعنف لتأكيد واستمرار سطوة الدول الكبرى على قارات العالم وبحاره ومحيطاته ...

لا زلت أذكر تمثيلية تلفازية رائعة يقوم ببطلتها الممثل المصري (توفيق الدقن) بعنوان (الطبيب والسيدة) ... وهو في نهاية التمثيلية تلك يصرخ (أدّ ايه الدنيا دي فيها ظلم ...) فلا يملك المشاهد إلا أن يتأثر لهذه الصرخة التي تعكس بالصدق الفني الكامل كل ما ينطوي عليه هذا العالم البائس من ظلم ومهانة وافتراس القوي للضعيف ...

الظلم يغطي قارات العالم الست من أقصاها إلى أقصاها ... ويتسلل كالسرطان إلى حجيراتنا وشرابينا ... ويقودنا إلى التعاسة والبوار ... ظلم القوي للضعيف ... ظلم الغني للفقير ... ظلم الحاكم للمحكوم ... ظلم الطاغوت للمستضعفين في الأرض ... ظلم الرأسماليين للعمال ... ظلم الاقطاعيين للأقنان ... ظلم السادة للعبيد ... ظلم الدول الكبرى للدول الصغرى ... ظلم الذين يحملون سلاحاً للذين لا يملكون حتى الخناجر والسكاكين ... ظلم الجبابرة النرسييون للجماعات والشعوب التي لا حول لها ولا قوة وسحقها بغير ما رحمة ... ظلم الشركات الكبرى لعرق الكادحين وامتصاص دمائهم ... ظلم المافيات الرهيبة للمواطنين الأبرياء ... ظلم الإعلام المضلل وإغوائه للمستعبدين والمارقين ... ظلم الجسد البشري المعروض على مصراعيه للمحرومين والمكبوتين ... ظلم الإعلان الذي يظل يلح ويلح حتى يدجن كل الراضين ويسوقهم إلى طاعته العمياء ... ظلم الرجل المستبد للمرأة الرقيقة ... وهذه لزوجها الضعيف ... وخيانتهما لبعضهما ... ظلم الآباء للأبناء ... والشيوخ الكبار لأتباعهم وخدمهم وعبيدهم ...

الظلم ... الظلم ... ينتشر في كل مكان وعلى كل مستوى ... ويمضي لكي يفترس بمنشاره الرهيب سعادة الناس وأمنهم ومستقبلهم ... وطعامهم وشرابهم ... بل حتى الهواء الذي يتنفسون والماء الذي يشربون ...

فكيف لا تأتي أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الثائر على الظلم ، لكي تعد الظالمين بأقسى أنواع العقوبة هناك في الدار الآخرة ، حيث لن يفلت أحد من العقاب !؟

تتوعدهم بالظلمات التي ستحيط بهم في قعر جهنم ، وبتطويقها إياهم من سبع أرضين
... فهل ثمة من تنديد بالظلم والظالمين ، أشد من هذا الذي يرفعه رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) في وجوههم !؟

حتى في هذه يا رسول الله ؟

(عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ان الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تتكلم) !
يوغل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ... هذا المعلم والتربوي والطبيب النفسي الكبير ... في أعماق النفس البشرية ... يجوس في دروبها ، ومنحنياتها ... يسلّط فانوسه المضيء على أغوارها البعيدة ... من أجل ملاحقة كل ما من شأنه أن يمسه بالأذى ، والشك ، والتوجس ، والتردد ، والخوف من المصير ... من أجل وضع اليد الخبيرة على جروحها وتضميدها قبل أن تمضي لكي تشطر الإنسان إلى شطرين ، وتمزقه قطعاً وتغريق ...
إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسعى جاهداً في حديثه الشريف هذا إلى بناء الشخصية البشرية الفاعلة ، المتوحدة ، التي تعرف كيف تعيش حياتها وتمضي إلى أهدافها على الصراط الذي لا عوج فيه ولا أمّتا ...

فهل ثمة أحد في العالم ينجو من (الوسوسة) التي تحيك في الصدور ... يتحرر مما تنيره في النفس البشرية من شكوك وأوهام ... قد يكون للشيطان - الخصم لله وللإنسان - الدور الأكبر في إثارتها ... وقد تتمخض عن فعل الإنسان نفسه ، ذلك الذي تأسره الوسواس ، خارج نطاق إرادته الذاتية ، وتسوقه إلى التمزق والعذاب ... فيما يسميه علماء النفس بالوسواس القهريّة أو التسلطية ، تلك التي تقهر الإنسان رغماً عنه وتتسلط على عقله وضميره وإرادته ... بعيداً عن اختياره ورغبته ... بل على النقيض منها ... ومهما حاول الفكك منها بأعمال قدراته العقلية وتحليله المنطقي ... فانه في الكثير من الأحيان يخرج مهزوماً ... بائساً ... كليلاً ...
فإذا ما ارتبطت هذه الوسواس بشبكة التعاليم والقيم والممارسات الدينية ، فانها ستكون أشد فتكاً بالإنسان ، لأنها تخترق أكثر قناعاته حصانة وقدسية ... وتسوقه إلى العذاب الذي يصعب وصفه !!

ها هنا يجيئ المربي الكبير ... ها هنا يتقدم النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي يعرف بنور الله سبحانه وتعالى خفايا النفس البشرية ... وما يتشكل في قاعها مما لا إرادة للإنسان فيه ... فحتى يخلصه من مردودها السيء ... حتى ينقذه من دورها المسموم في تمزيق الشخصية البشرية يصدر إعلانه الخطير ذاك ... ان الله (سبحانه وتعالى) تجاوز عن أمته ما وسوست به صدورها !! شريطة أن يضل الفاصل قائماً بين الوسوسة هذه وبين أن تتحول إلى فعل او ممارسة أو سلوك أو حتى كلمة !! ... أن يضل الخندق قائماً بين ما يحيك في جنبات النفس البشرية وبين أن يتحول هذا إلى واقع منظور قد يقود إلى ما لا تحمد عقباه ... وهو في معظم

الأحيان ، إن لم يشكم عن الوصول إلى هذه النقطة من الانزلاق نحو الفاعلية ، يكون ضرره كبيراً إن على مستوى الأفراد أو الجماعات ...

ها هنا وبلمسة نبوية مدهشة يتم العلاج وفق مستويين ... أولهما إزالة أي أثر من آثار الإحساس بالتأثم والخطيئة وتطهير النفس البشرية منهما ... وثانيهما وقف فاعلية الوسوسة من أن تتحول إلى فعل منظور ... وتقود إلى بؤر التفكك النفسي والاجتماعي على السواء ... ما من واحد منا إلا ووجد نفسه يوماً محاصراً بالوساوس القهرية أو التسلطية التي تضعه في دائرة العذاب ... ولطالما تساءلنا عما قد تتمخض عنه من عقاب ما دام أنها مرتبطة أحياناً بالبعد الديني ... وطالما حاولنا الفكك من أسرها اللعين بأعمال كل قدراتنا العقلية والتحليلية والمنطقية ... دون جدوى ...

ويجئ حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لكي يضع المرهم المناسب على الجرح ، وبلمسة مدهشة يقوده إلى الشفاء ، وهو في الوقت نفسه يصده عن أن يمضي قدماً فيتحول إلى ممارسات وأفعال وكلمات !!

فما أروع تعاليمك أيها النبي الكبير ... وما أرق لمسائك وأنت تتعامل مع أغوار النفس البشرية فتضيئ لها السبيل ... وتخرجها من أزمتها سالمة غانمة ... تماماً كما يفعل علماء النفس المعاصرون وفق أشد نظرياتهم حداثةً ...

يذكرني هذا بكتاب قيم للداعية الإسلامي الكبير محمد الغزالي (رحمه الله) ... جدد حياتك، والذي يقوم فيه بمضاهاة (العلاجات النفسية) التي توصل إليها العالم الأمريكي الكبير (ديل كارنيجي) في كتابه الشهير (دع القلق وأبدأ الحياة) مع جملة من أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإذا بالسياقين يتطابقان تطابقاً يثير الدهشة والإعجاب ...

ذلك أن كشوف هذا الدين ، في كتابه الكريم وأحاديثه الشريفة ... سيفدّر لها بإرادة الله (سبحانه وتعالى) أن تتطابق مع سائر الكشوف العلمية في ميدان النفس والعالم والكون ... والتي ستعلن عن نفسها قرناً بعد قرن ، وبخاصة عبر القرنين الأخيرين ... مصداقاً للآية

الكريمة: ﴿ سُنُّهُمْ آيَاتِنَا فِي الْإِفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سورة فصلت : الآية ٥٣).

حرب على التقليد الأعمى

(عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . فقيل : يا رسول الله كفارس والروم ؟ فقال : ومن الناس إلا أولئك ؟) .

وها نحن ذا نرى ، ونمارس ، ونعيش ... بل نتشبه ونقدس ما يأتينا عن الآخر ، غربياً كان أم شرقياً ... رومياً أم فارسياً ... شبراً بشبر وذراعاً بذراع ... إنه التقليد الأعمى للآخر ، والتنازل المطلق عن عاداتنا وتقاليدينا وأذواقنا وقناعاتنا ، وإحساسنا المتميز بالجمال ... إنه الركض المخيف وراء كل ما يطلع به الغرب أو الشرق علينا ، حتى لو اقتضانا ذلك تغيير ملابسنا وأشياءنا اليومية ، سنة بعد سنة ، بل شهراً بعد شهر ... بما يتطلبه ذلك من مصاريف تنوء بها العصابة أولو القوة ...

وتجئ القنوات الفضائية ، والإعلان المدروس بعناية ، لكي تطرق على رؤوسنا صباح مساء ... من أجل أن نلاحق تلك المستجدات التي يبتكرها دهاقنة المال والإعلام في ديار الغرب والشرق ، وننفذها حتى لو تشكلت على النقيض من عاداتنا وأذواقنا التي صنعها هذا الدين ، وصاغتها قرون من الزمن ...

أبدأ ... وكما عبر الرسول العظيم (صلى الله عليه وسلم) شبراً بشبر وذراعاً بذراع ... لا زلت أذكر واحدة من هذا الأخذ الأعمى عن الغرب ، من بين عشرات ومئات ، مما افترس نقود الناس ، ودمر أذواقهم ، وحولهم إلى أدوات بلياتشوية للدعاية والإعلان ، والتنفيذ السريع لكل ما يطلع هناك ...

إنها أزياء الرجال التي تغيرت من حال إلى حال نقيض تماماً عبر أقل من عشر سنوات ... ففي ستينيات القرن الماضي ابتكر ذلك الزي من البدلات الرجالية الذي ترق فيه حاشية الجاكيت (أو السترة) حتى لتكاد أن تصير اصبعاً ... ويرق معها الرباط الذي يصير حبالاً ... ومع الرباط ياقة القميص ... ومع ياقة القميص ترقق الذقون هي الأخرى وتقصّر حتى لا تكاد ترى ... أما الجهة الخلفية فيرتفع أسفل الجاكيت كثيراً عن تغطية خلفيات الرجال فتكشف مقاعدهم ... وكيف أن بعض المدرسين ممن أغواهم الموديل الجديد هذا ، كانوا حينما يديرون ظهورهم لطلبتهم ، من أجل كتابة بعض المانشيتات على اللوحة ... إذا بهم يصبحون ، ومقاعدهم تهتز وتتمايل أمام طلبتهم ذات اليمين وذات الشمال ، فرجة للمتدربين ، حيث ترتفع أصوات الطلبة إعجاباً واستهجاناً معاً !!

بعدها بأقل من عشر سنين وفي عقد الستينيات ، من القرن الماضي ، تغير الموديل إلى النقيض الذي يحمل اسمه الأمريكي : شارلستون !! فأصبحت حاشية الجاكيت (أو السترة) تمتد بعيداً حتى تتجاوز الكتفين ، ورباط العنق ينفرج هو الآخر فيغطي الصدر كله ... ثم تنزل الجاكيت إلى الأسفل بكثير حتى تصبح أشبه بالبالطو منها بالجاكيت ... وأما الذقون فتزداد عرضاً وتنزل مسافات بعيدة إلى أسفل الوجه ، فكأنها فردة حذاء لطخت على وجوه المقلدين ... وفي الحالتين فإن أكداساً من الأموال تكون قد انفقت على تبديل الأزياء وذهبت إلى جيوب كبرى الشركات الرأسمالية التي تمارس العبث بحق الإنسان ، وبكده وعنائه ، في مشارق الأرض ومغاربها ...

وأنتذكر أيضاً ، ما دمنا بصدد الشبر بشبر والذراع بذراع ... والشيء بالشيء يذكر كما يقول المثل المعروف ... حادثة ملك الماكياج الأمريكي صاحب مصانع (ماكس فاكتور) المشهورة الذي يقال أنه ، وهو يتجول في حديقة للحيوان مع صديق له ، وقف لدقائق قبالة قفص للقرود ، وحدّق طويلاً في عيني إحداها ، وكأنه أحس بدهشة صديقه وتساؤله فقال : على رسلك يا هذا ، فليس في الأمر ما يدعو للدهشة ... أنظر إلى عيني القرد جيداً ... ألا ترى حولهما حلقات ذات ألوان شتى من الأزرق والأخضر والأحمر والبنفسجي ، وغيرها ؟ نظر الصديق لحظات وما لبث أن أجاب : عجيب ... رغم انني لم الحظها من قبل ... قال الملك باعتذار : تلك هي مهمتي على أية حال ... أراد الصديق أن يتساءل مرةً أخرى ، فأسكته بإشارة من يده قائلاً : إن احساسني باللون لا يضاهي ... وإلا كيف أصبحت ملك الماكياج في العالم كله ؟ ولكن ليس هذا هو المهم والمهم هو أن أجعل نساء الأرض يحطن أجفانهن بالألوان نفسها ... وقد أضيف إليها نقاط ارتكاز ضوئي ذي بريق لكي يستكمل المهرجان أسبابه !! وقال ، وهو يغادر مرتباً على كتف صديق : المسألة مسألة وقت فحسب ... ولسوف ترى ...

انزلوا الآن إلى الأسواق ... اذهبوا إلى الدوائر والمؤسسات ... أدخلوا بعض قاعات الدرس في الجامعات ... انظروا إلى شاشات السينما والتلفاز ولسوف ترون بأم أعينكم المهرجان اللوني الذي وعد به (ماكس فاكتور) يحيط بأجفان النساء والممثلات والمذيعات والموظفات والمضيفات وطالبات الجامعة وفتيات الدعاية والإعلان ... وسواء صحت الرواية أم لم تصح فإن واقع الحال يغني عن كل مقال ...

وابنة (موشي دايان) قائد جيش العدو الإسرائيلي في معارك الخامس من حزيران ، تتذكر هذا أو شيئاً منه وتكتب في مذكراتها أنها وزميلاتها اليهوديات يدهشن لإلحاح القناة العربية في المكياج ... بل ان المرء وهو يتجول في جامعات الغرب ودوائره ، يجد النساء هناك - في الأعم لأغلب - غير متزينات ... وكأنهن يقلن : ليس هذا مكانه ... وللتزين موعده !!

عندنا ، وكما تنبأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تختلط الأوراق ، وتنسى بعض الطالبات والمذيعات والسكرتيرات ، انهن ذاهبات لتلقي العلم ، أو إلقاء نشرة الأخبار ، أو أداء المهمات الإدارية ، وليس لقضاء سهرة في ملهى ليلي ... أتذكر أيضاً أحد أساتذتي الفضلاء في جامعة بغداد في ستينيات القرن الماضي ، الدكتور فاضل حسين (رحمه الله) ، وهو على هدوئه المعهود ، ينفعل على حين غفلة ، ويتطاير الشرر من عينيه ، ويصرخ موجهاً كلامه إلى إحدى الطالبات ... كانت هذه ، وليس ثمة مبرر للتفاصيل ، في وضع لا يليق بحرمة الجامعة ولا بكرامة الإنسان ...

والمهم من وراء هذا كله ، أن الساعة لن تقوم ، حتى تأخذ أمتنا بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشير وذراعاً بذراع ... وها نحن ذا نرى ...

دعوة لتشغيل العقل المسلم

(عن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد) !!

إنها دعوة صريحة ، وبالبنط العريض ، لتشغيل العقل المسلم وفق الضوابط الاجتهادية ... وهي من أجل منحه حرية الحركة تعده بالأجرين إن أصاب وبالأجر الواحد إن أخطأ ... أية عقيدة دينية في العالم فتحت الباب على مصراعيه أمام (الاجتهاد) ... إزاء تشغيل العقل ... كما فعل هذا الدين الذي يغري باعمال العقل حتى لو انتهى الأمر به إلى الخطأ؟! إن هذا المبدأ لا يقتصر على التعامل الفقهي والحالات الاجتهادية ، ولكن يمضي لكي يغطي الحياة من أقصاها إلى أقصاها ... بكل مفرداتها ... بكل تفاصيلها ... بكل حججياتها وخلاياها ... فالشريعة الإسلامية تسعى في بدء التحليل وفي خاتمته إلى الاستجابة لكل مطالب الحياة ... إلى تلبية كل نداء من نداءاتها ... ومعضلة من معضلاتها ... ومطلب من مطالبها ... ومن أجل تحقيق هذا الهدف الكبير المتشعب كان لابد من نزول العقل لكي يعمل بأقصى طاقته في عملية التغطية هذه ... مستمداً من ضوابط الاجتهاد ... وقواعده الأصولية ... ومن مقاصد الشريعة العليا وغاياتها الأساسية ... ومن فقه الواقع ... ومطالب الموازين ... منهجه في العمل ...

وعلى مدى تاريخنا الإسلامي نهض كبار علماء الأمة لكي يعملوا عقولهم في أقصى وتأثرها فاعلية لكي يلاحقوا كل صغيرة وكبيرة من مطالب الحياة المتجددة ، ويستجيبوا لتحدياتها التي تتدفق كالسيل ... وبرز من بينهم رجال كبار تألفت عقولهم وهي تواصل السعي ليل ونهار من أجل الاستجابة لأسئلة الناس ... ومتغيرات الحياة ...

وهكذا يبرز على الساحة فقهاء متألقون كمالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل ... وابن حزم الأندلسي والشاطبي ... وابن تيمية وابن خلدون ...

بعضهم ابتكر علماً (عقلاً) جديداً في (أصول الفقه) وبعضهم الآخر مضى منقياً عن المقاصد العليا للشريعة الإسلامية ... وفئة ثالثة ابتكرت مناهج جديدة في التعامل مع المطالب الفقهية ... وفقه الواقع وفقه الموازين ...

حركة عقلية ظلت الأمة الإسلامية زمن تألقها الحضاري تنبض بها وتوتّي أكلها للناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها ... من أجل أن تحكم الحياة بالتحاليم والقيم والموازين الإلهية

المعادلة القادمة من السماء بواسطة النبي الخاتم محمد (صلى الله عليه وسلم) في كتاب الله (سبحانه وتعالى) ... وسنة رسوله (عليه السلام) ...

حتى إذا انطفأت جذوة الفاعلية الحضارية ، وانكفأت الأمة على نفسها ، وفقدت القدرة على التألق والابداع ... وكف عطاء العقل ... وجئى خصبه ... بسبب مما صنعتة أيدينا ... وبسبب الظروف المتلاحقة التي دهيت بها الأمة من خصومها وأعدائها ... توقف هذا كله ... إذ ما لبثنا أن وجدنا التيار العقلاني الهادر الذي أبدع واحدة من أكبر المكتبات في العالم عطاء وخصباً فكرياً ... يكف عن التدفق ويضمر وينتهي به الأمر إلى الدعوة إلى ما سمى بوقف حركة الاجتهاد ...

وهي في حقيقة الأمر دعوة لتعطيل عمل العقل وشل فاعليته وإطفاء جذوته واستبدال ذلك كله باستيراد نتاج العقل الغربي ... وهو نتاج متشكل في بيئة غير بيئتنا ومناخ غير مناخنا ... بحيث أن اقحامه في مناهجنا التربوية والتعليمية ، من بدء مراحلها الأولى وحتى دراساتها العليا ، فعلت كما يقول المفكر المعروف ليوبولد فايس : محمد أسد فعل السم في حياتنا ...

ومن ثم فاننا ما لم نوقف عملية استيراد الأفكار من الآخر ، ونرجع ثانيةً لكي نبنينا بأنفسنا وفق قيمنا وثوابتنا ومعطياتنا الإسلامية التي لا تبخل علينا بالإجابة عن أي سؤال على الاطلاق ... فلسوف نظل أسرى التقليد الأعمى الذي يخرج عبيداً واتباعاً لا يملكون شخصيتهم الحضارية ، ولا يتميزون بمعطياتهم الأصلية التي يمكن أن تضيف للبشرية ما يخرج بها من الضيق الذي تعاني منه ، ومن العفن والفساد الذي يأخذ بأقطارها الأربعة ...

والبداية الصحيحة دائماً ... هي في اعتماد العقل ... ومدّ النشاط الاجتهادي إلى كل مفاصل الحياة ... كما علمنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ...

فئات أربع !!

(عن عبادة بن الصامت (رضي الله عنهما) قال : بايعنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على السمع والطاعة ، وزاد في هذه الرواية وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم) ...

فما الذي يقوله دعاة الانهزامية وإلقاء السلاح تجاه الطواغيت والحكام الظلمة ومستلبي حقوق الإنسان ؟ ... نعم ... السمع والطاعة لمن يعمل بكتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وببذل وسعه في تنزيل مطالبهما على واقع الحياة بكل مفاصلها ومنحنيات ومساحاتها ... أما أولئك الذين يخرجون عن الطريق ... ويشذون عن الالتزام بهذه القاعدة الكبرى ... فلن نتقدم إليهم بباقات الزهور ... وبلوي الرقاب ... وبكلمة (نعم) على كل ما يقولونه أو يفعلونه ... وبهذا نمذّ ليس فقط في أعمارهم وسطوتهم وجبروتهم ... وإنما قبل هذا وذلك في توسيع مساحة الانشقاق والتمرد على مطالب هذا الدين ... (نقول بالحق حيثما كان لا نخاف في الله لومة لائم) !

ورفض الطغيان يبدأ دائماً بقول كلمة الحق في وجهه ... بتجاوز التوجس والخوف من سطوته وجبروته ... ثم تجبئ بعد ذلك كل الممارسات الثورية التي تمضي لاستئصاله كما يستأصل الورم الخبيث من الجسد البشري ...

بل اننا لنتذكر ها هنا حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي يحكي فيه عما سيشهده الزمن القادم بعد عصر الرسالة من تسنّم الطواغيت مقاليد الحكم والسلطان ... فيسأله أصحابه وماذا نفعل يا رسول الله فيكون جوابه الحاسم : كما فعل أصحاب موسى وعيسى (عليهما السلام) نشروا بالمناشير وعلقوا على الأخشاب ...

فمن أين جاءت هذه المقولة التبريرية المشؤومة ، بكف يد المسلم عن مقاومة السلطان أو رفع السلاح في وجهه ؟

ثمة فئات شتى من أعداء هذه الأمة وخصومها اجتمعت على صناعة هذه المقولة ... وراح السدّج من أبناء هذا الدين ، ومن وعاظ السلاطين يعيدون القول فيها يوماً بعد يوم حتى لكانها أصبحت حقيقة مسلّمة لا تقبل جدلاً ولا نقاشاً ...

هنالك المرجئة الذين فكوا الارتباط بين الايمان والعمل ، وتلك هي إحدى الخطايا الكبرى بحق هذا الدين الذي التحمت في نسيجه خيوط الايمان والعمل بحيث أن أحد القطبين يبطل إذا بطل القطب الآخر ... وهنالك المستشرقون الذين عرف عنهم كيف يدسون السمّ بالعسل ... ويغروا بمقولتهم هذه جماهير المسلمين ليس فقط بكف مقاومتها لحكامها الظلمة ، بل من إلقاء السلاح إزاء المستعمرين ... أنفسهم الذين جاءوا لكي يدمروا مقومات هذه الأمة ويستنزفوا

خياراتها ... ثم ما لبثت فئة ثالثة أن لحقت بهم تلك هي الماركسيون دعاة التفسير المادي للتاريخ أولئك الذين أكدوا المقولة نفسها وألحوا في تأكيدها حتى غدت أمراً واقعاً ... وثمة بعض الفرق الإسلامية المناهضة لأهل السنة والجماعة ممن يحلو لها تصوير أبناء هذه الطائفة وكأن قد أصابهم الشلل والعجز التام في التحرك ضد حكامها الفاسقين ...

أربع فئات تعاضدت لتأكيد هذه المقولة ... ثم نجى نحن بسذاجة بعض كتابنا وباحتينا ونزعتهم التبريرية ... بدءاً من الماوردي في (الأحكام السلطانية) وانتهاء برودود الفعل تجاه ما سمي بثورات الربيع العربي وكيف انعكست وبالأعلى الأمة !!

وكما هو معروف فإن الأفعال الخاطئة يجب ألا تقود إلى رودودها الخاطئة التي تساويها في القوة ، وتخالفها في الاتجاه ... فهناك دائماً المعايير العقدية المستمدة من كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) تحمي أبناء هذه الأمة من هذا المنزلق الخطير ... وهي معايير يبلغ من عدلها وموضوعيتها أن تسلط الضوء على جانبي كل قضية تتعامل معها ، آخذةً بمبدأ (هذا وذاك) وليس (إما هذا أو ذاك) ... ذلك أنها من علم الله جلّ في علاه الذي هو أدري بمن خلق ، والذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ...

وقد عالجت بالتفصيل موقف القرآن الكريم من هذه المسألة في كتابي (الله والطاغوت) ... أما موقف السنة النبوية والتعاليم التي تقدمها الأحاديث الشريفة ... فهي كثيرة لا يكاد يحصيها عدّ ويمكن للمرء أن يتابعها في كتب الحديث ومجموعاته الصحيحة ...

السمع والطاعة ... نعم ... ولكن لمن ؟ للقيادة التي تلتزم بكتاب الله (جلّ في علاه) وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ... وليس فيما وراء ذلك إلا التنديد بعذاب الدنيا والآخرة ... وإلا المقاومة والرفض ...

(عن معقل بن يسار (رضي الله عنهم) عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : ما من وإلّ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة) ...

(وعن أنس بن مالك (رضي الله عنهم) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) !!

السمع والطاعة حتى للعبيد والأحباش ما داموا يعملون بكتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وتلك هي إشارة مدهشة على ما تسميه (الديمقراطية المعاصرة) بالمساواة بين الناس وبفتح الفرص أمامهم لتولي السلطة حتى لو كانوا من العبيد والزنوج والسود ...

ولكن هذا كله ليس سوى أحد وجهي الصورة ... والوجه الآخر هو رفض طاعتهم في اللحظة التي تشم فيها رائحة خروج عن مطالب هذا الدين وإبحار في الاتجاه المعاكس ...

وتاريخنا الإسلامي من بدئه حتى منتهاه يجيء مصداقاً لهذه الرؤية !!

حماية الطفولة

(عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : جاء أعرابي إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال : أتقبلون الصبيان فما نقبلهم ! فقال النبي : أو أملك لك أن نزرع الله من قلبك الرحمة ؟)

...

تمضي رحمة هذا الدين ، ونبي هذا الدين ، لكي تلف الحياة الأحياء ... تمضي حتى إلى عالم الطفولة البريئة ، كما مضت إلى عالم الرجال والنساء ، لكي تمنحها العطف والمحبة ... لكي تحتضنها وتقبلها وتستجيب لأشواقها ومنازعتها ... من أجل أن تنهض قائمة مستوية على سوقها تعجب الزراع لكي تغيظ بهم الكفار ...

إن هذا الرجل البدوي الذي جفت في قلبه ووجدانه منابع الرحمة يعلنها صريحة قبالة من ؟ قبالة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذلك المعلم والمربي الكبير الذي يدرك بنور الله خفايا النفس البشرية ومطالبها الملحة ... هذا البدوي الجافي يسأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أتقبلون الصبيان ؟ وقبل أن يجيب الرسول يجابهه بموقفه الجافي ذاك ... ما نقبلهم !! كأنه بذلك - وهو يتحرك بالاتجاه المعاكس لسنة الله في الخلق وما فطر الله عليه الناس صغاراً وكباراً ... يريد أن يحسم الموضوع وان يتقرب بجفائه ذاك إلى الله ...

فما أغربها من مفارقة ...

ولكن الرسول المربي يعرف كيف يرد عليه فيشكمه كي لا يعود لمثلها مرة أخرى ، وكما يعلم اتباعه المسلمين في كل زمن ومكان كيف يتعاملون مع الطفولة : (هل أملك أن نزرع الله في قلبك الرحمة) !!

تلك هي طبيعة البداوة في كل زمن ومكان : الجفوة والغلظ والقسوة في التعامل بين الإنسان والإنسان ... وبين الكبار والصغار ... ولهذا كان صاحبنا هذا يستغرب ويدهش كيف يكون تقبيل الصبيان ... فهل بمقدور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يزرع الرحمة في تلك الأرض الموات التي قتلها عطش آلاف السنين ؟

أما هو وصحابته الكرام ، وأجيال اتباعه في كل زمن ومكان ، فانهم مستعدون - ما دامت الرحمة الإلهية قد غرست في نفوسهم - لأن ينشروا كهرباءها لدى كل من يتعاملون معه ... بمن فيهم الصبيان محبةً وعطاءً وحناناً ...

ومعروف في مبادئ التربية ومعطياتها ، أن سوية الطفولة الناشئة لن تتحقق ، وتتجاوز الانحراف عن الطريق ذات اليمين وذات الشمال ، الا بحقنها بجرعات متواصلة من التعاطف والرحمة والمحبة ... ويجبئ التقبيل والمداعبة ... وحتى ممارسة اللعب مع الأطفال ... لكي

يمضي بهم إلى بناء نفوسهم بناءً سليماً خالياً من التشوّهات التي طالما أصابت الكبار ،
وانحرفت بسلوكهم ، بسبب من خشونة التعامل معهم وقسوته أيام الطفولة ...

واننا لنتذكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كيف أنه وهو يمارس أشد عباداته قدسية
وتجرباً لله (سبحانه وتعالى) ... وهي الصلاة ... كان يسمح لحفيديه الحسن والحسين (رضي
الله عنهما) أن يتسلقا على كتفيه الشريفين فينهض بهما من السجود ثم يعود لكي يركع
ويسجد وهما معلقان على كتفيه دون أن تبدو منه أي إشارة توحى بأنه غير راضٍ عن تصرفهما
... ذلك ...

يا الله ... كم لهذه المحبة ... وهذا التعاطف ... وهذا القبول بانفتاح الصدر والقلب ،
من مردود إيجابي على الطفلين الجميلين ، اللذين سيقدر لهما أن يكونا سيدي شباب أهل الجنة
(رضي الله عنهما) ...

فمن نتلقى التعاليم ؟ من هذا المربي الكبير الذي يدعو إلى تقبيل الأطفال واحتضانهم ،
أم من ذلك البدوي الجافي الذي يدهش لممارسة كهذه ، فيمتنع عن التقبيل !؟
فما من كائن يخفق في جنبات هذه الحياة الدنيا ، رجلاً كان أم امرأة ... كبيراً أم صغيراً
... شيخاً أم صبيّاً ... الا ووجد تحت مظلة هذا الدين من يحميه ... من يؤكد حقوقه ومطالبه
... من يمنحه من صيغ التعامل الإنساني في أقصى حالاته رقةً وعذوبةً ، الكثير الكثير مما لا
تكاد تجد عشر معشاره لدى الآخر ، رغم ادعاءاته الكاذبة ...

فها هم الغربيون المتحضرون ... يهتكون أستار المرأة ويحولونها إلى أداة للجنس والتمتعة
والدعاية والإعلان ... بل يمشون إلى أبعد من هذا فيهتكون أستار الطفولة البريئة بالشذوذ
الجنسي الذي راحت وتأثره تزداد حدةً يوماً بعد يوم ...

بل انهم ليهتكون أستار شعوب بكاملها ، فيعرضونها للموت والدمار بأشد الأسلحة فاعليةً
وفتكاً من أجل تأكيد تفوقهم في هذا العالم وتسلطهم على مقدراته ...

ومرةً أخرى ... من هو الذي يحمي إنسانية الإنسان !؟

هكذا يجب أن نكون ... وإلا !!

(عن أبي موسى (رضي الله عنهما) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، ثم شبك بين أصابعه).

يتساءل الكثير عن أولئك الذين تهمهم قضايا الأمة الإسلامية ... ويكتب الباحثون ... ويحلل المفكرون ... منطلقين جميعاً من حال الأمة الراهن من التمزق والتطاحن والتناحر والحروب الأهلية ، والدمار ... والموت الذي يحصد يوماً مئات المسلمين وألوفهم ...

ما هو السبب الذي يكمن وراء هذه المأساة التي ما ابتليت بها أمة من الأمم في الماضي والحاضر ... لماذا هذا الأوكازيون المعلن للدم الإسلامي المسفوك صباح مساء ؟ ولماذا لا تكف السكين عملها في حصد أرواح الناس بغض النظر عن أفعالهم الخيرة أو الشريرة ... ولماذا أصبحت جغرافية العالم الإسلامي أكثر البيئات في العالم استعداداً للاستعمار القديم والجديد ... بحيث أنه لم تبق ثمة بقعة في هذا العالم لم يصلها الجزار الإنكليزي أو الفرنسي أو الإسباني أو البرتغالي أو الهولندي أو البلجيكي ... ولم تلاحقها حبال رعاة البقر الأمريكيين ... إلا مساحات صغيرة لا تكاد ترى ... وهي استثناء للقاعدة الأعم والأشمل ...

ولماذا هذا الانتظار اليائس للخلاص من هذا كله ... هذا الأمل المستحيل بوقف المذبحة التي تطال دماء المسلمين ... وأموالهم ... وأعراضهم ؟ صباح مساء ... سواء أكان هؤلاء المسلمون في ديارهم الأصلية ، أم كانوا أقليات منتشرة هناك وهناك؟! ولماذا ؟ ... ولماذا ؟ والجواب على ها كله يقودنا إلى الحديث النبوي الشريف الذي يتصدر هذا المقال ... لقد أراد لنا هذا الدين ... وأكد رسوله (صلى الله عليه وسلم) مراراً وتكراراً على أن المؤمن للمؤمن يجب أن يكون كالبنيان يشد بعضه بعضاً ... ومن أجل إيضاح هذه الحقيقة الأساسية حولها الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى وسيلة إيضاح بأن شبك بين أصابعه !

فهل أصغت أمتنا جيداً إلى هذا الخطاب ؟ هل أصبحت كما أراد لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كالبنيان يشد بعضه بعضاً ؟

لا والله ... ومنذ بدايات تشكلها الأولى ، رفض العديد من جماعاتها الاستجابة لهذا النداء الذي به وحده تبنى الأمم ، وتزدهر الحضارات ... إذ ما لبث دعاة الرجعية والبداعة والتخلف ، وكارهو ازدهار الدول والعمران البشري والتقدم الحضاري أن وقفوا بالمرصاد لحركة الدعوة الإسلامية بصيغة حركة النفاق في العصر المدني ، وحركة الردة والتنبؤ في عهد الخليفة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ، وحركة الفتنة العمياء في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وانتهت بمقتله بتلك الطريقة البدوية القاسية الجافية ... وحركات الخوارج التي

أطاحت بخلافة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ومضت لكي تعيث في الأرض فساداً ...
عبر القرون الطوال ...

ثم ما لبثت الأمة الإسلامية أن تعرضت لجملة من التمزقات العصبية والإقليمية والمذهبية،
كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد تنبأ بها وحذر منها بتأكيده أن هذه الأمة ستنتشظى
إلى ما يزيد عن السبعين فرقة ... واحدة منها فقط هي الناجية يوم الحساب ...
فأين هذا كله من (البنيان) الذي يشد بعضه بعضاً !؟

إنه الإبحار في الاتجاه المعاكس حيث المعاول القاسية التي تنزل في البنيان وتهدمه على
رؤوس أصحابه ، وتفرق المنتمين إليه شذر مذر ...

وها هو ذا العصر الحديث يعطينا الصورة الواضحة لهذا كله عبر القرنين الأخيرين ... بل
عبر العقدين الأخيرين حيث ازداد التمزق والتقاتل والتطاحن بين أبناء الأمة الواحدة ، فتجرأ
عليها الخصوم والأعداء وراحوا هم الآخرون يعملون فيها سكاكينهم الحادة صباح مساء ...
بحيث أنه ما من نشرة إخبارية واحدة على الاطلاق ... خلت من الإشارة إلى سفك الدم المسلم
مجاناً وبأرخص الأسعار ...

فلا حول ولا قوة إلا بالله ...

إننا إذا أردنا أن نتجاوز هذه الحلقة الدموية المفرغة ، ان نتمرد عليها ، ونكسر طوقها
القاسي .. ونخرج إلى العالم أمةً قوية فاعلة متحضرة ... فان علينا أن نصغي جيداً لتعاليم نبينا
وقائدنا ومعلمنا ومربينا محمد (صلى الله عليه وسلم) ... وها هنا يجيئ تعليمه كالبلسم الشافي
لجراحات الأمة ... أن ترجع إلى توحيدها ... أن تصير كالبنيان يشد بعضه بعضاً ... وأن
تتذكر كيف فعلت هذه الوحدة فعلها في الأجيال الأولى التي قدر لها أن تقود العالم وتبني
حضارته ...

وبدون ذلك فاننا سوف نمضي أكثر فأكثر صوب القاع ... صوب مزيد من التشرذم
والتطاحن والتمزق ... وإذا كنا في بدايات القرن الماضي عشر دول أو حتى عشرين ... فاننا قد
نغدو أربعين دولة أو خمسين وفق منطوق تجزئة المجزأ الذي تتأمر به علينا القوى الكبرى ...
فحذار ...

أقصى درجات الوعي

(عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) !!

ونحن أمة لدغت أكثر من مرة من الجحر الواحد ... أفراداً وجماعات وأحزاباً وشعوباً وحكومات وجماهير ... فنزفت كثيراً ، ورأت بأم أعينها نتائج أخطائها الكبيرة ... والخطأ - كما يقول الداهية الفرنسي العجوز تاليران - أكبر من الجريمة ...

ولم تتعظ ... ومضت وكأن لم تصبها اللدغة واللدغتان ... مضت مكشوفة الظهر لكي تتلقى المزيد من اللدغات ... وكأنها قد آلت على نفسها أن تضع على آذانها شمعاً أحمر كي لا تنصت لتعاليم رسولها العظيم (صلى الله عليه وسلم) الذي يعرف برؤيته النبوية الثاقبة ما يجب أن تصنعه ، وهي تتعامل من الخبرات والتجارب وتجتاز حيثيات التاريخ ...

أمة أصابها الصمم ... فلم تعد تكثرث للأصوات المخلصة التي تسعى لإنقاذها من التردّي والسقوط ... فكم من صراع بين هذه الفئة من المسلمين وتلك ، يشتعل على حين غفلة دونما سبب منظور ... يعود ثانية وثالثة ورابعة ... و ... و ... إلى الاشتعال ، رغم غياب الأسباب !! وكم من انتكاسة لحقت بهذه الجماعة الإسلامية ، أو تلك ، بسبب من ترك ظهرها مكشوفاً لمخابرات الأجهزة الحاكمة ، فتلقت الذبح من الوريد إلى الوريد ... وعادت مرةً أخرى ، ومرتين وثلاثاً ، لكي تمارس نشاطها المضاد بظهور مكشوفة لأمن الحكام والطواغيت ومخابراتهم ... وكم من خطأ فادح وقعت فيه هذه المنظمة أو تلك ، مرة ومرتين وثلاثاً ، دون أن تتعلم منه ، فلا تسمح له بأن يكرر مأساته المرة والمرة والثلاث ...

وعبر بوابة السوء هذه دخل علينا الخصوم والأعداء من خارج الديار الإسلامية بصيغ الغزو والاستعمار والاستعباد ... ومن داخلها على أيدي حكامنا وطواغيتنا ... وتلقينا في الحاليتين جملةً كبيرة من الضربات الموجعة لا زلنا نعاني من ويلاتها حتى اللحظات الراهنة !! ورغم أن كتابنا ومفكرينا يؤلفون البحوث والكتب يوماً بيوم وساعةً بساعة ... ورغم أن سيول بحوثهم ومؤلفاتهم تتدفق على الأسواق منبهة أبناء هذه الأمة إلى ما يراد لها من خصومها في الخارج والداخل ، وكأنها تريد أن تذكرهم بحديث الرسول المعلم (صلى الله عليه وسلم) : (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) ... فاننا لم نلتفت لتحذيرهم ، وببساطة ، لأننا أمة لا نقرأ !!

ورغم أن كتاب الله (جلّ في علاه) ، وهو يتحدث عن الجهاد في سبيله ، وعن تحركات المقاتلين لتدمير قوى الطواغوت في العالم ، يطلب منهم وهم يؤدون الصلاة في ساحات القتال أن

يأخذوا حذرهم ... يطلبها مرتين ... رغم أنهم دخلوا بصلاتهم تلك في حماية الله سبحانه وتعالى،
ومارسوا عبادتهم تحت خيمته ... لكنه ينبههم أن يأخذوا حذرهم مرتين : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ
فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن
وَرَاءِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْ تَغْلَبُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ
إِن كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِّنَ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ
اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (سورة النساء : الآية ١٠٢).

ما معنى هذا ؟ أليس هو حماية المؤمن في هذا العالم من ألا يلدغ من الجحر الواحد
مرتين ؟ كما علمنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ أليس وضعه في حالة إنذار من الدرجة
(ج) وفي أقصى حالات الوعي ؟

ليس هذا التعليم الخطير ذو البعد الاستراتيجي في التعامل مع حيثيات الزمن والمكان
والممارسات البشرية وحده ... مما لم نلتفت إليه ونضعه في بؤرة المنظور ونحن نمارس نشاطنا
... ولكنها شبكة من التعاليم النبوية ، هذه إحداهما ، مما لو أخطأ بها ، انصتنا جيداً لمطالبها ،
الترمنا بما تريده ، لكان حالنا غير الحال التي آلت إليها هذه الأمة التي تهدر دماءها مجاناً
صباح مساء ... والتي تستلب حقوقها مجاناً صباح مساء ... والتي تقترس حتى لقمتها الطيبة
... صباح مساء ...

فما أروع تعاليمك يا رسول الله ... لكأنك برؤيتك النبوية الثاقبة التي تتجاوز حدود الأماكن
والأزمان ، وتتحرر من أسر الجغرافيا والتاريخ ... قد امتلكت الخبرة الموهلة في نسيج السنن
العاملة في التاريخ ... السنن التي ترفع الأمم وتحصنها ... وتلك التي تتحدر بها وتفتتها
وتخرجها من التاريخ ... ومن ثم تجيء تعاليمك وأحكامك مطابقة تماماً لما كان ، ولما هو كائن ،
ولما سيكون ...

ويوم أن قدرت هذه الأمة أن تستوعب تعاليمك تلك ... تمكنت من الإمساك بقوانين الحركة
التاريخية ووظفتها لحسابها ... فسادت بها العالم لأكثر من عدة قرون ... وأصبحت سيدة الأمم
في السلم والحرب ... وبنيت حضارتها المتفوقة التي شهد لها خصومها أنفسهم بأنها قدمت
التأسيسات المبكرة للحضارة الغربية المعاصرة.

وعدواً على بدء ... فاننا إذا أردنا أن نسترجع دورنا في العالم ، فان علينا ابتداءً أن ننشئ
بتعاليم كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) لكي لا نلدغ من الجحر الواحد عشرات
المرات ومئاتها !!

لعنة تبديل خلق الله ...

(عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : لعن النبي (صلى الله عليه وسلم) المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، وقال : أخرجوهم من بيوتكم) ...
وها نحن في زمننا البئيس هذا نلتقي يوماً في شوارعنا ومؤسساتنا وجامعاتنا ومدارسنا ودوائرنا بحشود من المخنثين من الرجال وبحشود أخرى من المترجلات من النساء ... وقد نستقبل بعضهم في بيوتنا فلا نهينهم ولا نخرجهم منها ...
والحالة المرضية السرطانية تزداد انتشاراً وسعاً ... يوماً بعد يوم ... ويزداد معها المخنثون من الرجال والمترجلات من النساء ...

إنها ولا ريب واحدة من المحاولات البائسة لتغيير خلق الله ... أن يكون الرجل رجلاً وأن تكون المرأة امرأة ... وهي اللعنة التي قدمت إلينا من ديار الغرب ، وبسبب من تقليدنا الأعمى لما يأتينا من هناك ، اندفع شبابنا عن غير وعي ولا تدبير لكي يمارسوها ، فيقبلوا بممارستها خلقهم الأصل الذي أراه لهم الله سبحانه وتعالى من أجل تمييزهم وكرامتهم ... فيصبح الرجل منهم أشبه بالنساء ، وتصبح المرأة منهم أشبه بالرجال ... وهي حالة ، فضلاً عن كونها اختراق للنظام الإلهي المحكم بخلق الزوجين في هذا العالم ، وإثارة الارتباك في وظائفه الأساسية ... فانها تثير التفرز لدى الأذواق التي لا تزال على طهرها ونظافتها ...

فما من شاب يضع القراريط الأنثوية في أذنيه ... ويتجمل ويتخطط بالمساحيق والأصباغ ... ويسير رخواً متميعاً ... الا وأثار في نفوس الآخرين القرف والاشمئزاز لأنه خروج قبيح عن قاعدة الحياة ... وما من امرأة تلح في قص شعرها ، متشبهة بالرجل ، وتلبس البنطال بدلاً من الفستان ، وتسير بخطوات صلبة كما يفعل الرجال ... الا وأثارت في نفوس الآخرين القرف والاشمئزاز لأنها خروج عن قاعدة الحياة ...

ومع ذلك فعجلة الشر تمضي ، واغواء الشيطان يجرها أكثر فأكثر نحو المزيد فإذا بالحالة الاستثنائية تزداد اتساعاً حتى لتتذر باليوم الذي ربما تصير فيه القاعدة وغيرها الاستثناء ...
وحينذاك فلنصبق على الحياة التي تتدنى فيها الأذواق إلى هذه الدرجة ، ويبدل خلق الله ...
فإذا ما عدنا ثانية إلى جذور البلاء : الممارسة الغربية الجانحة والتقليد الشرقي الأعمى ، فاننا سنعثر على واحد من النماذج الفريدة من نوعها ، وهي أشبه ما تكون بوسيلة إيضاح للحالة الملثوية إياها ...

إنها الأديبة الفرنسية المعروفة (سيمون دو بوفوار) التي تقول بالحرف : " إن المرأة لا تخلق امرأة بل تصبح امرأة ... فليس هناك مصير بيولوجي أو نفسي أو اقتصادي يحدّد الدور

الذي تؤديه أنثى البشر في المجتمع ... إن المدنية ككل هي المسؤولة عن إنتاج هذا الكائن الذي يوصف على أنه أنثوي " !!

أي تبديل هذا لخلق الله؟! وأي منطلق يتناقض ابتداء مع التفرد المؤكد للمرأة على المستويات البيولوجية والنفسية والاجتماعية ، وهو التميز الذي يؤكد كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ويتعاملان معه من أكثر من زاوية ، ليس من أجل وضع (الأنثى) في درجة أدنى من الرجل ، وانما من أجل الاستجابة لطبيعة مطالبها الأساسية ووظيفتها الأولى ، وهو الأمر الذي يجعل المرأة على المستوى الإنساني ، ليس فقط في حالة توازٍ مع الرجل يكمل من خلاله أحدهما الآخر ، بل ان المرأة قد تحتل موقعاً أعلى من الرجل في كثير من الحلقات الأساسية للحياة البشرية ، كما يلحظ من معطيات هذا الدين في العقيدة والتشريع والسلوك على السواء ...

وعلى أية حال ، فان (سيمون دو بوفوار) انسياقا وراء نزوعها المضاد للأنثى ، فضلت أن تظل عشيقة لرفيقها (جان بول سارتر) لمدى نصف القرن على أن تصير زوجة له ، عندما طلب منها الزواج ، معتقدة أن العلاقة التي تجمعهما أقوى وأهم من (ورقة) تحدد هذه الرابطة ! بل ان (دو بوفوار) اضطرت مع (الأنثى) باتجاه آخر لا تقل خطورة ، فإذا كانت في الحالة السابقة ترفض الرابطة الزوجية التي هي أساس كل علاقة إنسانية بين الرجل والمرأة ، فانها في الحالة الثانية ، رفضت أن تصير المرأة (أمّاً) وأن تكون كائناً يحرس استمرارية الحياة بحكم قوانين الفطرة. ففي عام (١٩٧١م) وقعت مع ٣٤٠ امرأة بياناً يفيد بخضوعها لعملية إجهاض تحدياً للقانون الفرنسي آنذاك !!

ليس هذا فحسب ، بل انني وانا أتجول مع صديق في شارع الشانزليزيه الشهير في باريس عام (٢٠٠١م) كان يلکم جملتي العصبية منظر نشاز يتكرر بين الحين والحين وبين خطوة وأخرى ... حيث يلتفت إلي ذلك الصديق قائلاً : انظر إليهما انهما متزوجان زوجاً مثلياً ... أي زواج الرجل بالرجل ... فإذا بأحدهما يضع (الميك أب) والمساحيق على وجهه ، والأقراط النسائية في أذنيه ويسير إلى جوار زوجه مائلاً متميعاً !! وهو يتلقى القبلات منه بين لحظة وأخرى أمام حشود الناس !!

(أخرجوهم من بيوتكم) وكأنه (صلى الله عليه وسلم) يريد أن يقول : أخرجوهم من حياتكم ... لآحقوهم ... ولا تتبقوا لهم أثراً ... ذلك أنهم أشبه بالحالة السرطانية التي لا تكف عن الانتشار بمجرد أن يغفل عنها الإنسان ...

حرب على الخرافة ...

(عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : لا طيرة ، وخيرها الفأل ، قالوا : وما الفأل يا رسول الله ؟ قال : الكلمة الصالحة يسمعا أحدكم) ...

ونحن نتناقل عن الغربيين تشاؤمهم من الرقم ١٣ ... ومن القطط السوداء ... ومن ... ومن ... ونسعى إلى تقليدهم ، والجري وراء ترهاتهم حذوك النعل بالنعل ... ومن قبلهم الجاهليون الذين كانت حياتهم تعج بخرافات كهذه ... فكانوا يتطيطرون من حالات معينة ، ويتفاءلون بحالات نقيضة أخرى ... وقد يغيّر هذا الاعتقاد الباطل مجرى حياتهم ويقلبها رأساً على عقب ...

ويجيئ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لكي يعلن الحرب على الخرافة بشتى صيغها ومفرداتها ، ويستأصلها من الحياة مستبدلاً إياها بقوة الكلمة !! التي كانت في البدء ... الكلمة الصالحة يسمعا أحدنا فيبني بها الحياة ويمضي بها قدماً صوب المزيد من الإبداع والإعمار ... (لا طيرة) ... فلا تشاؤم أو تفاؤل لا يقومان على أساس ، ومن وراء (الطيرة) ، وقبلها وبعدها ، جملة من الممارسات الجاهلية الخاطئة التي تتدرج كافة تحت مظلة الخرافة التي جاء هذا الدين لكي يعلن الحرب عليها ويستأصلها من الوجود ... من مثل الأنصاب والأزلام ... ورمي الأحجار ... والتنجيم ... ومطالع الكواكب والنجوم ، كذلك الذي تتاجر به ، وتضلل جماهير القراء ، معظم المجالات التي تصدر في العصر الحديث ... وهي جميعاً من الممارسات التي لا تستند إلى دليل عقلي أو علمي على الإطلاق ...

وتمضي حملة الرسول المعلم (صلى الله عليه وسلم) ضد الخرافات والأضاليل فتعلن في أكثر من حديث شريف رفضها المطلق للسحر بمختلف صنوفه وأشكاله ... ولتسخير الجان والشياطين عبر شبكة مضللة من الفاعليات التي يراد بها كسب إعجاب الناس ، ودهشتهم ، وسوقهم من ثم إلى الانحراف عن الجادة السوية والكفر بالله (سبحانه وتعالى) ...

ولقد أعلن القرآن الكريم ، من جهته ، الحرب على خرافة السحر في جملة من الآيات هذه إحداهما : ﴿ وَأَتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَامْرُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ قِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمُرءِ وَرُءُوسِهِ وَمَا هُمْ بِضَائِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ

اللَّهُ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿سورة البقرة : الآية ١٠٢﴾.

فالقُرآن الكريم ... ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يريدانها حياة مستقيمة خالية من الالتواءات ، ومن دخل الجن والشياطين وافكهم وتضليلهم ... يريدانها حياة (عقلانية) إذا صح التعبير ترفض كل ما من شأنه ألا ينسجم ومعطيات العقل والفترة البشرية السليمة ... وتدين كل أولئك الدجالين ، والمشعوذين ، والنصابين ، والسحرة ، الذين يريدون الانحراف بها عن مجراها الوضيء الأصيل ...

إن السحرة والمنجمين يعتمدون محاولات الجن والشياطين لاستراق المعلومات من الملأ الأعلى ... ولهذا وضعت الحواجز في طريقهم (رسداً) ... ومع ذلك فانهم قد يحصلون أحياناً - ولحكمة يريد بها الله سبحانه وتعالى - على بعض المعلومات ، فيسخرهم السحرة والمنجمون لإيصالها إلى الناس وإيهامهم بقدرتهم على اختراق الغيب والاطلاع على ما سيشهده العالم من وقائع وأحداث ... ولهذا تأتي معلوماتهم هذه - كما هي الحال في كتاب المنجم العالمي الشهير نوستراداموس - وهي تتطوي على خليط من الوقائع المؤكدة والغيب والمعميات والضباب ... وهم في نهاية الأمر يوظفون معلوماتهم هذه لتعبيد الناس المغفلين حيناً ، ولجرهم إلى الكفر والنسوق حيناً آخر ... ولتحقيق الكسب حيناً ، ولتبوء المراكز المتقدمة لدى أصحاب السلطان حيناً رابعاً ، والاستمتاع الشامل المنحرف حيناً خامساً ... بهذا الذي يضللون به الناس ، ولجلب إعجابهم والانتفاف حولهم ، وللوقوف بوجه دعوات الأنبياء (عليهم السلام) وإعلان الحرب عليها ، امتداداً لموقف إبليس الذي أعلن الحرب ابتداءً : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١٠٢﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا ضَلِيلَهُمْ وَلَا مَئْتِهِمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَسْبِكْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْتَبِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١٠٤﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٠٥﴾ أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٠٦﴾ (سورة النساء : الآيات ١١٧-١٢١) ، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَكَوَّ شَاءَ رَبِّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٠٧﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفِئَّةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِكَيْ تَقْرَفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١٠٨﴾ (سورة الأنعام : الآيتان ١١٢-١١٣) ، ﴿ وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ

اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا
قَالَ الْكَافِرُ مُتَوَكِّفْ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّنَا حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّنُ بِعَضِّ
الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ (سورة الأنعام : الآيتان ١٢٨-١٢٩).

وصدق الله العظيم

الموازنات الإلهية

(عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء) .

وتلك هي سنة الله في الخلق والعالم ... ونواميسه الثابتة في الكون والحياة ... التوازن الذي تتقابل فيه الأضداد - وليس بالضرورة أن تتصارع كما تدعي المادية الديالكتيكية الخائبة - ولكن أن تتسجم وتتوافق ويستجيب طرفها الأول لمطالب الطرف الثاني وضروراته في الحياة والأشياء على السواء ...

إنها (الزوجية) التي طالما حدثنا عنها كتاب الله (جلّ في علاه) : ﴿ ... اهْتَرَتْ وَرَبَّتْ وَأَبَتْ مِنْ كُلِّ نَرْوَجٍ بَيْحٍ ﴾ (سورة الحج : الآية ٥) ، ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَمْرِضِ كَمْ أَبْتَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ نَرْوَجٍ كَرِيمٍ ﴾ (سورة الشعراء : الآية ٧) ، ﴿ ... وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَبْتَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ نَرْوَجٍ بَيْحٍ ﴾ (سورة ق : الآية ٧) ، ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا نَرْوَجَهَا ... ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٨٩) ، ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهِةٍ نَرْوَجَانٍ ﴾ (سورة الرحمن : الآية ٥٢) ، ﴿ ... وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا نَرْوَجِينَ اثْنَيْنِ ... ﴾ (سورة الرعد : الآية ٣) ، ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا نَرْوَجِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة الذاريات : الآية ٤٩) ، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَنْرُوجَ كُلَّهَا مِمَّا تَبَتْ الْأَمْرُضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة ياسين : الآية ٣٦) ، ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَنْرُوجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ (سورة الزخرف : الآية ١٢) ، ﴿ ... وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَنْرُوجًا مِنْ بَبَاتِ شَجَرٍ ﴾ (سورة طه : الآية ٥٣) ، ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَنْرُوجًا ... ﴾ (سورة فاطر : الآية ١١) .

هذه الأزواج التي يفئ بعضها إلى بعض ، ويسكن بعضها إلى بعض ، ويكمل بعضها البعض ، ويلقح بعضها البعض الآخر ، من أجل أن تمضي الحياة في أقصى حالات التحفز والوفاق والانطلاق ...

وثمة تلك الإشارة القرآنية المدهشة التي ترد في الآية : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَنْزُوجَ كُلَّهَا

مِمَّا تُبِتُ الْأَرْضَ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة ياسين : الآية ٣٦) ... ففي زمن تنزل القرآن الكريم كان الكثير من الحقائق العلمية خافياً عن الأذهان ، ولسوف يقدر له أن يتكشف بمرور الزمن وبجهود العلماء الكبار ، لكي ما تلبث البشرية أن تجد نفسها قبالة ذلك التطابق المدهش والمعجز بين تلك الكشوف وبين ما سبق وأن تنزل به كتاب الله جلّ في علاه الذي لا تتقضي عجائبه.

فإذا بنا نجد كيف تتشكل فيزياء الذرة من شبكة من العلاقات الزوجية بين السالب والموجب ، وبين الالكترتون والبروتون ... وبين حشد كبير من الثنائيات التي تتقابل فيها الأزواج ... وتبني الوجود !؟

ها هنا في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تأكيد على البعد نفسه ... فما أنزل الله (سبحانه وتعالى) من داء إلا وأنزل له شفاء ... من أجل أن يشمر الإنسان عن ساعديه ، ويبدل جهده المتواصل بحثاً عن شفاء كل داء ، والعودة بالحياة البشرية إلى سويتها الطبيعية !! إنه بقدر ما هو إشارة إلى العدل الإلهي الذي يحكم الحياة ، فانه دعوة مباشرة وغير مباشرة ، إلى أن تشهد المجتمعات البشرية حشوداً من الأطباء والصيادلة والكيميائيين والعلماء ، من أمم شتى ، لملاحقة كل داء وإيجاد سبل العلاج الملائمة له ...

وفي يوم ما ، زمن تألقنا الحضاري ، دفعت هذه الحقيقة إلى ظهور جملة من الأطباء والصيادلة الكبار ، الذين عكفوا على ملاحقة الأوبئة والأمراض ووضعوا لها العلاجات المناسبة: الرازي ، ابن الهيثم ، ابن البيطار ... وغيرهم كثيرون ... كانت كشوفهم ومعطياتهم تدرس في الجامعات الأوروبية في لندن وأكسفورد وباريس وبرلين وروما ... زمن النهضة الأوروبية ... ولكن ، ويا للأسف ، ما لبثت أيدينا أن ارتخت ، وكفت عجلة الملاحقة العلمية للحالات المرضية عن الحركة ... وتركنا الساحة للغربيين الذين شمروا عن ساعد الجد ، وبذلوا جهودهم المكافح لتحقيق هذا الهدف العزيز ... والأمر في الحاليتين يأتي مصداقاً لحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء) ...

ويتوهم كثير من الناس في ديارنا أن ذلك الأمر يقتصر على طب الأعشاب الذي بولغ في مفعوله إلى حدّ غير معقول ... بل إن بعض المتاجرين به ، وأقولها صراحةً : (المتاجرين) لأن مؤلفاتهم في هذا الميدان لقيت رواجاً كبيراً ، وأصبحت (علاجاتهم) حتى في البرامج التلفازية ، تدرّ عليهم ربحاً وفيراً ، بحيث أنهم سموا محاولتهم هذه بالطب البديل ... فكأنها دعوة لاستبدال الطب الأصيل الذي يعتمد العقاقير والأدوية الكيميائية الفاعلة ، بها الطب الذي يعتمد

على العشبيات التي فتحت لها الأسواق والصيدليات المتخصصة ... ولم يتواضع أحد من هؤلاء القوم فيسمي هذا بالطب الموازي ، احتراماً - على الأقل - للعلم الجاد والبحث الأصيل ...

مهما يكن من أمر فان الكشفيين معاً ... الكشف الكيمياء والكشف العشبي يتعاضان في نهاية الأمر ، لتقديم الشفاء لما يعانيه الناس من أمراض شتى ... لا يستبدل هذا بذاك ، ولا يغني أحدهما عن الآخر ، وإنما هما يمضيان معاً لتقديم الشفاء للمرضى والمأزومين ...

ويبقى قبل هذا ، ومعه وبعده ، ان هذا العالم محكوم بإرادة الله (جلّ في علاه) وسننه الزوجية وتوازناته المدهشة التي تبدأ بما لا تراه العيون ، وتمضي لكي تحرك النجوم والأجرام والسدم والمجرات الكبرى وفق نظام محكم لا يندّ لحظة واحدة عن إرادة خالقه أو يخرج عن أمره ... (جلّ في علاه) ...

(وصلى الله تعالى عليك وسلم) يا رسول الله ... أيها الطبيب الكبير وأنت تدلنا على هذا الناموس الذي يعرف كيف يحفز العقول لمواصلة البحث عن (الشفاء) الذي أنزله الله سبحانه وتعالى قبالة كل (داء) !!

حرب على التزييف

(عن أبي بكره (رضي الله عنه) قال : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ، ثلاثاً ، قالوا : بلى يا رسول الله : قال الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وفسلس وكان منكناً ، فقال : ألا وقول الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت) !!
إذا أردنا الحق ... فان الرسول المعلم يعلن في هذا الحديث حربه على التزييف عبر ثلاثة من أخطر حلقاته ، وأكثرها تأثيراً في حياة الإنسان فرداً وجماعة ...
الإشراف بالله ... عقوق الوالدين ... وقول الزور ...

إنه يلم هذه الخطيئات الكبرى الثلاث في سياق واحد من أجل استنفار الهمم الإسلامية لإعلان الحرب عليها واستئصالها من ضمائر الناس وعلاقاتهم الاجتماعية ، قبل أن تنتشر سمها الزعاف فتمضي بالحياة إلى القاع الذي لا يتوافق بحال من الأحوال مع كرامة الإنسان الذي قدر له أن يكون سيداً على العالمين : ﴿ وَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَمَقْنَاَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (سورة الإسراء : الآية ٧٠).

فأما الشرك فهو الخطيئة الكبرى والظلم الأعظم ... ظلم للذات الإلهية المتفردة ، المتوحدة ، المتعالية ، المنزهة ، القديرة ، الفاعلة المريدة ، الحاكمة التي لا ولي لها من الدّل ولا تشرك في حكمها أحداً ... ظلم بإحالة الجزئي على الكلي ، والمحدود على المطلق ، والفاني على الخالد ، والناقص على الكامل ، والمخلوق على الخالق ، ومساواتهما ومنحهما معاً أسماء وصفات وأفعالاً واحدة ، بينما وحدانية الله (جلّ في علاه) تنفرد بأسمائها وصفاتها وأفعالها تفرداً كاملاً مطلقاً منزهاً عن أي قدر من التشبيه أو المقاربة ، متعالياً بالضرورة التي لا تقبل أي محاكاة أو جدلا ... هذه الوجدانية التي تتجرأ المخاليف فتضع في مصافها ، أو قريباً منها ، ظواهر وموجودات ورموزاً وأوثاناً وصنميات وطواغيت وأرباباً ... هي أولاً وأخيراً من خلق الله (سبحانه وتعالى) ، وفي قبضته ... لا تعزب عنها ... ولا تستطيع فراراً من حكمها القاهر حتى لو أوت إلى نفق في الأرض ، أو ابتغت سلماً في السماء ، أو سعت للنفاز من أقطار الكون ...

ظلم للحق الذي يتأبى على الكذب والتزوير ، وللحقيقة التي ترفض التدليس والتشويه ... ظلم للإنسان نفسه ، وتدمير لفطرته النقية ، وتجاوز لبداهاته الحسية والعقلية والوجدانية على السواء ...

ظلم لجماهير الناس باستلاب حريتها العميقة وإرغامها على الخضوع للرموز التي يصنعها الظلم العظيم ... للطواغيت والأرباب التي تحكم قبضتها على الرقاب ، وتمارس طغيانها وتألهاها

في الأرض بألف صيغة وأسلوب ... ولكنها جميعاً تتسج بنول واحد ، يستمد من خيوط واحدة وينتهي إلى مصير واحد هو استعباد الإنسان وتحويل السعي البشري إلى إقطاعية كبيرة يتنعم فيها الطاغوت ، ويتلوى الاتباع مسغبة وقهراً ومذلة وجوعاً واستلاباً ...

ظلم لحركة التاريخ وقوانينها وسننها ووافقها مع حقائق الكون والوجود التي تمضي بإيقاع واحد ، وتمضي صوب هدف واحد ، فتزيد فاعلية وألقاً وعطاءً ، من أجل جعلها ترتطم والنواميس ، فتعارض وتتفتت وتفقد القدرة على الأداء ، وتنتهي في آخر المطاف إلى تلك القطيعة المرة والفصام النكد بين التاريخ والناموس ...

ترى كم من المصائب والمتاعب والأحزان والخسائر والويلات والتعاسات والآلام تجرعهما الإنسان عبر تاريخه الطويل ، وهو يرغم على هذا التحول ، أو يختاره ابتداءً ، فيخرج إلى الفوضى والتسيب والارتجال ، ، ويفقد توازنه ... ويضيع !؟

أليس هو الظلم العظيم الذي يبدأ بالكذب على الحقيقة الكبرى ، لكي ما يلبث أن ينسحب على كل الممارسات والخبرات ، مهما صغرت ودقت وبعدت عن العيان ؟

أليس هو الظلم الذي يلف الكون والحياة والخلائق والموجودات ، ويرغمها على أن تترك مساراتها المحكمة لكي ترتطم وتتفتت وتتبعثر فتضيع ؟

وأما عقوق الوالدين ، فهو الإبحار ضد نواميس الله سبحانه وتعالى في الحياة الاجتماعية ... تلك التي أريد لها أن تبني الأسرة الإسلامية على قواعد المحبة والتوافق والانسجام ، وعلى طاعة الأبناء للأباء والأمهات ... وعلى الكلمة الطيبة والموقف الحاني الذي يتحتم أن يصدر عن الأبناء تجاه أولئك الذين بذلوا السنين الطوال ، وتحملوا كل صنوف الأذى والعذاب ، من أجل أن يصلوا بأبنائهم إلى بر الأمان ... أفبيح هؤلاء لأنفسهم أن يتمردوا على أبايهم ، وأن يعقوهم ... وأن يجابوهم بالكلمات الحادة التي تنزل على جملتهم العصبية كالخناجر والسكاكين ... إلا أن يكونوا قد التوا نفسياً وخلقياً ... بما يسمح لهم أن يمارسوا هذا التزييف المحزن في علاقاتهم مع آبائهم وأمهاتهم !؟

إنها على أية حال وضعية شاذة في العلاقة الأسرية بين الطرفين ... وإن صرنا في العصر الحديث ، حيث تمّ تزييف الكثير الكثير من الحلقات الاجتماعية في حياتنا ، نشهد تزايدها بشكل ينذر بالويل والثبور ... ويقود إلى تفكيك ، بل إلى تدمير القاعدة الأساسية في الحياة الاجتماعية : ألا وهي الأسرة ...

وأما ثالثة الكبائر فهي قول الزور ... أي الشهادة الكاذبة تجاه الطرف الآخر ... تلك التي تقلب الحقائق رأساً على عقب ، وتجعل الأسود أبيضاً والأبيض أسوداً ... فتفترس حقوق الناس

بسكينها الحادة التي تعتمد تزييف الوقائع ، والتدليس عليها ، من أجل تحقيق مصلحة ما على حساب الآخرين ...

فهل ثمة أقبح من هذا السلوك المرذول في التعامل بين الناس عبر دوائر العدل والقضاء ؟ هل ثمة من تزييف أكثر خطورة من هذا التزييف الذي يقود إلى افتراس حقوق الآخرين ؟ والذي يقرأ بعض الروايات ويشاهد عدداً من المسلسلات التلفازية يعجب لهذا التقابل المفتعل بين المحامي والمدعي العام ، وكأنه قد كتب عليهما أن يقف أحدهما قبالة الآخر وكأنهما خصمان أبديان لا يمكن أن يلتقيا ... حتى لقد أصبح من قبيل المسلمات الخاطئة أن يفند أحدهما أدلة الآخر ويهدم كل حججه ، حتى ولو كان بعضها على الأقل مصيباً ، وحتى ولو كان أحد الطرفين مقتنعاً - في باطنه - بوجهة نظر خصمه أو غريمه في هذه المسألة أو تلك ...

والحاكم الذي يتحتم أن يكون رحي الدائرة ومركز القضية ، يدير رأسه ذات اليمين وذات الشمال ، ويتدخل بين لحظة وأخرى للتخفيف من حدة الصراخ وعنف الكلمات المتبادلة بين المدعي العام والمحامي ، أو لوقف تدهور الموقف أكثر مما يجب ، أو لتحقيق نوع من التفاهم بينهما.

والمتهم يعتقد منذ اللحظة الأولى أنه يجابه خصماً لدوداً ، متمثلاً بشخص المدعي العام ، وأن محاميه ان قدر على التفوق عليه واكتساحه - بالحق والباطل - فقد ربح القضية ونجا من العقاب ...

ألا يقتضي منطق العدل نفسه تقليداً إجرائياً آخر غير هذا التقليد ذي الصيغة الخاطئة ، تحوّل الطرفين معاً ، المدعي العام والمحامي ، إلى رجلي بحث عن الحقيقة ، جنباً إلى جنب مع الحاكم ، ليس بالصراع وتبادل الكلمات ، ولكن بالتفاهم والتعاون وبذل الجهد المشترك ، الجهد المخلص الذي يعتمد على الأساليب الموضوعية ، للتوصل إلى الحقيقة المغيبة عن الأنظار بقوة التزييف والتزوير !؟

وهكذا نجد كيف أن فكرة (المحاماة) بصيغتها أحادية الجانب هذه ، هي بمثابة تقليد قدم إلينا من أوربا المنفعية ، وأننا لسنا ملزمين البتة بالأخذ به لأنه في بعض أشكاله يمارس (تزويراً) يخالف قيمنا وقناعاتنا وممارساتنا ، بل قد يرتطم بها ...

وكلنا يذكر - على سبيل المثال - ما كان يفعله الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في سوح القضاء ، والتقاليد الإنسانية العادلة التي صاغها على هدي دينه لكي تكون معالم بارزة على الطريق المضني الطويل للبحث عن الحقيقة ، ولملاحقة الجريمة ، والتزوير ، ولإنصاف المظلومين من الظالمين ...

وكلنا يعرف كيف كان (رضي الله عنه) وغيره من قضاة الإسلام على مدار التاريخ ،
مستعدين للتراجع عن قراراتهم النهائية في كل لحظة ، إذا تبين لهم وجه جديد من القضية قد
يعينهم على التوصل إلى الحق ...

ومن ثم نعرف لماذا عدّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذه الممارسات الثلاث
الملتوية ، أكبر الكبائر وراح يرددتها حتى قال صحابته الكرام : ليته سكت !!
وكيف يتم السكوت إزاء هذا التزييف الذي يلف الحياة الإسلامية في معتقدها ، وعلاقتها
الأسرية ، ومصالحها الاجتماعية ... كيف !؟

بين الحياة والموت

(عن أبي موسى (رضي الله عنه) قال : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت) !!
يا له من تشبيهه خطير ...

إنه الفارق بين الحياة والموت ... بكل ما تنطوي عليه الكلمتان من معنى ...
فالذي يوغل بعيداً في فاعلية الايمان بالله في الوجدان البشري يجد نفسه قبالة الحياة بكل تمخضها وصيرورتها وقدرتها على البعث والتجدد والنماء ... فإذا غاب الايمان بالله ، وانمحت لمساته المضيئة في النفس البشرية ، قادهـا ذلك إلى التيبس والضمور ... والموت في نهاية الأمر ...

ليس الموت السريري أو البيولوجي بطبيعة الحال ... ولكنه الموت الروحي والوجداني الذي أريد له أن يميز الإنسان عن عوالم الحيوان والحشرات ...
والذين جربوا الأولى حدثونا عما خفت به نفوسهم ، والتمعت عقولهم من ومضات الحياة وكتبوا في ذلك أروع القصائد والمعطيات النثرية ... وحدثونا عن سيرهم الذاتية المترعة بالخبرات الروحية التي تدفقت بالعمس المصفى عليهم وعلى الآخرين ممن قرأوهم أو تتلمذوا عليهم أو تعاملوا معهم ...

وبمجرد نظرة سريعة إلى معطيات المتصوفة الكبار ، بعيداً عن التصوف المنحرف الضال ، فاننا سنجد أنفسنا وسط خبرات عميقة ، موهلة ، مترعة بالعدوية والحياة ...
وكذلك الحال عبر تجوالنا في كتب (الرقائق) التي تميزت بها مكتبتنا الإسلامية ... فانها تنطوي على شبكة خصبة من التعاليم التي تعرف كيف تفجر الحياة في نفوس قرائها ، وكيف تضعهم في أعلى مصاف من الخبرات البشرية ...

الحياة التي يتحقق بها الإنسان بأبعادها الثلاثة : الطول والعرض والعمق ، وليس ببعديها السطحيين ، الطول والعرض ، كما هو الحال بالنسبة لدهماء الناس ...

والحق أننا جميعاً في هذه الحياة الدنيا ممثلون عابرون ... ظلال عابرة ... تتحرك مسرعة على شاشة الزمان ... تملك طولاً وعرضاً ، لكنها لا تملك عما تستحق من أجله البقاء ...

الحياة الحقيقية المكثفة ذات العمق ... (الحيوان) بالتعبير القرآني ، هي هناك في الآخرة : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَكِبٌ وَإِنَّ الدَّامِرَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : الآية ٦٤).

أما هنا في (الدنيا) ولننتبه إلى دلالة الكلمة ، كي لا يضيعنا الأمل الكاذب والغرور ...
فما نحن سوى ممثلين عابرين ... في مسرح رخيص ... إن لم نتحصن بقوة الايمان ...
والرجل الرجل من يأخذ معه الزاد الذي يعينه على رحلة العبور الصعبة بين الحياة والموت
... وبين الأرض والسماء ... وبين الدنيا والآخرة ...
من هذا كله يتضح الفارق الكبير بين الذي يذكر ربه والذي لا يذكره ، ويصدق تشبيه
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إياهم بالأحياء والأموات ...
في الحضارة الغربية المعاصرة ، المتفوقة تقنياً وخدمياً ، تضرر الروح ويموت
الإنسان ويغيب ذكر الله في الوجدان البشري ... فإذا حاولنا أن نلّم جل مفردات الحياة الغربية ،
وأنشطتها ، في انساق محددة فاننا سوف لا نجد بأكثر من ثلاثة انساق تتدرج في أطرها تلك
الأنشطة والمفردات ... الإنتاج ، أو التنمية والتكاثر بالأشياء (بما فيها الأسلحة والجيوش) ...
والجنس ، أو الترفيه في أكثر حالاته حسية ومادية ... والسوبر ماركت ، أي النزعة الاستهلاكية
التي يزيدها الإعلان ، والتكاثر ، والنزوع الحسي ، سعاراً وجموحاً ... وتحت مظلة هذه الحياة
تمضي كل القوى الفاعلة لتصعيد وتائر هذه الأطراف ، أو الحدود الثلاثة التي تمسك اليوم
بخناق الإنسان : الدولة والمؤسسة والمجتمع والفرد على السواء ... كل يعمل من جهته لنفخ
النار فيها ... متفرداً حيناً ، متوافقاً أو منسقاً مع الأطراف الأخرى حيناً آخر ...
والعالم يجري كالمجنون ... يركض إلى حدّ اللهاث ، أفراداً وجماعات وشعوباً وأماًماً
... الكل يريد أن يلحق بالركب الأمريكي الذي يقود حملة السوء هذه ... الكل يريد أن يتكاثر
بالأشياء ، وأن يشبع نهمه الجنسي ونزوعه الذي لا حدود له للاستهلاك ، معتقداً على الطريقة
الابيقورية البائدة أن الحياة فرصة للتحقق باللذة ، أو الطريقة الاسبارطية : (التحقق بالقوة)
بغض النظر عن ارتباط اللذة والقوة بمنظومة القيم الدينية والخلقية والإنسانية ، أو عدم ارتباطها
على الاطلاق ...
ويتساءل المرء : ماذا لو مضى مثلث الشرّ هذا إلى النهايات القصية التي يراد له أن
يمضي إليها ، كيف ستصبح الحياة ؟ وهل ستستحق فعلاً أن تعاش ، وقد فقدت عمقها الروحي ،
وبعدها الإنساني ، وضوابطها الأخلاقية ، وضيّعت مغزى الوجود البشري في العالم وغدت مجرد
لهات وراء التكاثر بالأشياء ، والتحقق بالإشباع الجنسي في أحط صيغة حسية وحيوانية ...
والنزوع إلى الاستهلاك الذي يكس ويكس حتى يجد الإنسان نفسه ، كما يقول (أونسكو) في
إحدى مسرحياته : محاصراً بالأشياء حيث يفقد حريته وقدرته على التواصل مع الآخرين ...
ألا إنها اللعنة التي ستمسخ إنسانية الإنسان والحياة البشرية على السواء ...
فهل هذه هي الحياة التي أريدت للبشرية ؟

من أجل ذلك يتنبأ كبار القوم هناك : كتاباً وفلاسفة ومفكرين بما يمكن أن يفعله هذا الدين المشحون بالبطانة الايمانية في مستقبل البشرية ... إذا أريد لها أن تقي إلى الطريق ، وأن تتجاوز تسطحها ومواتها غير المعلن وتسترجع النبض الحقيقي لحياتها ... بأن تعلن انتماءها لله !!

الشیطان یضحك ...

بعنوان (تعديل جديد على قانون قديم) يقول (نزار قباني) في إحدى مقطوعاته النثرية التي تضمنها ديوان (قاموس العاشقين) :

" ان تلاقى رجل وامرأة في حجرة
" خرج الشيطان مهزوماً
" لكي تدخل أزهار الربيع ... "

ليس قانوناً قديماً هذا الذي يتوهمه الرجل أو يوهم به الآخرين ، لكي يتولى تعديله !! ولكنه حديث شريف (إذا اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما) .
ولكن الشاعر يريد أن يمارس عملية التقاف الرجل من أجل تحقيق هدفه ... وهذه ليست أول ولا آخر مرة تمارس فيها محاولات التقاف مكشوفة كهذه !
والحديث الشريف يطرح دائماً حقائق قاطعة كالسكين ... ليس هذا فحسب ، ولكنه يضمّن معطياته كافة أوجه الحقيقة عندما تكون الأخيرة مركبة ، متعددة الأوجه والاحتمالات ...
فها هنا ، بصدد انفراد رجل بامرأة ، لا يمكن الا أن يكون الشيطان حاضراً ! والشيطان لا يمارس مهمته بصيغة واحدة متكررة ، أو شكل لا يقبل تغييراً أو تبديلاً ... على العكس انه يملك من الأساليب المتغيرة ، المتنوعة ، المتجددة ، ما يجعله أقدر على دخول قلوب بني آدم والعبث بها ...

ان مسالكة إلى مكامن القلوب عديدة متشعبة ، وهو يعرف جيداً كيف يتلوى ، ويتخفى ، ويغير المدخل في كل مرة ، وينساب إلى الداخل من شعاب لم يكن قد اجتازها من قبل عندما يجد الموانع والمتراس تقف في هذا الدرب أو ذاك ، تصدّه عن المضي إلى هدفه ...
إنه يطرق الأبواب أحياناً وببده فعلاً باقة ورد ، أو بطاقة تهنئة ملونة ... ويطرقها حيناً آخر بمقطوعة موسيقية أو قصيدة شعر جميل ... وقد يدخل مباشرة عندما يكون الطريق سهلاً ... فلا أزهار ، ولا أغانٍ ، ولا قصائد ولا بطاقات !!

ولكنه في كل الأحوال يبتغي شيئاً واحداً ... هدفاً لا يحيد عنه أبداً ، ويكافح من أجل بلوغه دون كلل أو ملل ...
ذلك هو الاغواء !!

تلك هي مهمته الأبدية ... وكاذب دجال من يتصور أن الشيطان يمكن أن يتوخى لبني آدم سبل السعادة والمحبة والأمن والوفاق !

إنه لا شيطان الشعر والإلهام ، ولا شيطان الشهوات والآثام ، بمبتغيين للإنسان ما ينفع الإنسان ...

فمنذ لحظة التحدي الأولى التي حدّد فيها إبليس موقفه تجاه المخلوق الجديد ... المخلوق الكريم الذي بعثه الله لكي يعمر الحياة ، ويزين العالم ، ويمارس مهمته العمرانية التي انيطت به تكريماً وتقديراً ، وحتى يوم الفصل ... كانت مهمة الشيطان وستظل هي ... هي ... لا تتغير ولا تتبدل ، على تغير الخطط وتبدل الأساليب : التضليل ، ولا شيء غير التضليل ... ثم ... ولنكن صرحاء ونتساءل عن طبيعة التجربة المتحققة على حيز الواقع عند كل لقاء يتم بين رجل وامرأة ... رجل قادر وامرأة جميلة بطبيعة الحال !! وليس وفق صيغ اللقاءات الثنائية الأخرى التي لا تتوقّر فيها شروط التأثير والتأثر ، ولا تتحقق الخلوة على الأقل في حدودها الدنيا من حيز الزمن والمكان.

و(نزار) يريد على وجه التأكيد هذا النوع من اللقاء ، كما هو واضح من كلماته تلك ... فأية تجربة متحققة ها هنا غير الميل الفطري الأبدي لدى الطرفين أحدهما تجاه الآخر ، والذي قد يقود ، إذا غابت ضوابط الالتزام الديني أو الأخلاقي أو الإنساني ، إلى نهايته الطبيعية وهي السقوط ؟

من يصدّق أن الشيطان سيخرج مهزوماً ؟ ومن يقول بأن أزهار الربيع لا تدخل لكي تنت عطرها وتضمخ الأجواء ؟ ان هذا لا يمنع ذلك أو يحجبه بل على العكس ، فان الشيطان هو الذي سيتولى مهمة إدخال الأزهار ، ونث العطور ، لكي يجعل الأجواء أكثر إثارة وأقدر على تحقيق التأثير والتأثر ...

إن الشيطان لا يعمل بدون ديكورات تغطي الجدران القبيحة للممارسة الخاطئة ... ومساحيق تضع الأصباغ على الوجوه التي تجعّدت بفعل الخطيئة والنيات السوداء ! إن الحب الافلاطوني ... غراميات مجنون ليلي ... وكثير عزة ... وروميو وجولييت ... لهي استثناء من قاعدة أوسع بكثير وأكبر بكثير ... والاستثناء كما هو معروف يؤكّد القاعدة ولا ينفىها.

والدليل ما يؤكده (نزار) نفسه عبر جلّ دواوينه من أن اللقاءات الثنائية بين الرجل والمرأة ما كانت تكتفي بالوقوف عند شواطئ اللحظات الشعرية الحاملة ، بل ان الرجولة والأنوثة تسوق حتماً ، حيثما توفرت الشروط ، إلى الخطوة التالية. والخطوة التالية هي التي يريد الشيطان ، ويرسم لها ، ويتحفز لتنفيذها ... فأية هزيمة للشيطان هذه التي يتخيلها رجلاً كان الشيطان يختبئ في جيبه عبر أربعين سنة أو تزيد ...

إن المرء ليتخيّل الشيطان نفسه يستغرق في الضحك وهو يقرأ هذا المقطع ... ولكنه ما يلبث أن يكف عن الضحك ، ويحسّ بارتياح عميق وهو يجد قدّامه حشوداً من الشعراء وغير الشعراء ، يسعون للالتفاف على كلمات الرسل والأنبياء من أجل أن يضلّوا بني آدم ... وهو الهدف ذاته الذي نذر شاعرنا له نفسه في معظم دواوينه ... أما البقية الباقية منها ، وبخاصة بعض روائعه السياسية ، فتستحق التقدير والإعجاب ... بل أكثر من التقدير والإعجاب ... إذا أردنا أن نكون منصفين !

حرّروا الظهور من السياط ...

الأمة التي ترتفع فيها أثمان كل شيء ، ولا يرخص إلاّ الدم ، أمة بحاجة إلى تغيير أساسي في مواقفها جميعاً ...

ومن عجب أن يرتبط هذا (الرخص) لأعلى شيء في الحياة ، بما يسمونه حركة التاريخ التقدمية ... معنى هذا أن التقدم يستلزم حصد الرؤوس وقطع الرقاب ، وفق الأسلوب الروبسييري المعروف. وليس هذا هو المهم ، فما أكثر الخونة والرجعيين الواقفين في طريق الشعب المشروع صوب مطامحه وأمانيه ، أولئك الذين يستحقون القتل والإبادة ... المهم هو من بيده صلاحية تحديد المخلص من الخائن ، والتقدمي من الرجعي ، قبل إنزال المقصلة على الرؤوس ؟ خاصة وأن حركة التاريخ التقدمية هذه توصل إلى مراكز المسؤولية في كثير من الأحيان أصحاب الأذرع القوية لا العقول المفكرة ... والانتماءات الحزبية أو العصبية الضيقة ، لا الشعبية أو الجماهيرية الواسعة ، ونزعات الطغيان الفردي لا العدل الشامل ؟

ومن ثم تجيئ دوافع حماية النفس وسط تقابل غير عادل بين قلّة تملك الحكم والمال والجاه والسلطان ، وكثرة لا تملك شيئاً ، إلاّ أنها لسعتها وامتدادها تمثل تحدياً خطيراً للقلّة الحاكمة المبرّرة بشعارات التحرّر والتقدمية.

وبمواجهة هذا التحدي تلجأ هذه القلّة إلى الإرهاب ... وليس كسفك الدم ، واسترخااص الإنسان ، قدرة على تنفيذ هذا الهدف المريح ، وتحقيق جسعه الذي يظل يتصاعد ويتصاعد مع الزمن ، وبأسلوب طردي ، كردّ فعل دائم لاتساع نطاق التحدي ، وازدياد توتره بين الحاكم والمحكوم. وخلال هذا تشهد دائرة القلّة الحاكمة نفسها تصدعات وانشقاقات تدفعها إلى تناحر حاسم على السلطة لا يصل فيه ويضمن البقاء والاستمرار إلاّ من يسفك دمأ أكثر ... ومرة أخرى ، يكون الشعب هو الضحية ، ويكون استرخااص الدم واحتقار الإنسان ، أشبه بالدوامة التي يجريها الأدهى والأقوى ، والتي لا تطحن في أعماقها المنشقين فحسب ، بل تمتد وتتسع لكي تلتهم كل من يشك بعدم موالاته للسلطان الجديد.

لكن أخطر ما في هذه الجريمة التي ألفتها أمتنا خلال عقودها الأخيرة ، فحوّلت اكثرياتها الساحقة إلى نعاج لا ترفع رأسها إلى فوق ، ووسمتها بطبائع القطيع ، أن عملية (الحصاد) الجماعي هذه لا تقتصر على أولئك الذين تثبت فعلاً ، وبالأدلة القاطعة والبيّنات الملموسة ، معارضتهم للنظام ، ورفضهم القاطع للانتماء إليه أو التعاون معه ، وهم كثرة ساحقة على أية حال ، انما تمتد إلى أعماق السرائر وطوايا النيات ، لكي تحكم بالظن والتخمين ، على مصائر

أناس أكثر عدداً ، وتسفك بالتهمة الخاطفة دماء أفراد وجماعات لا يدري الآ الله سبحانه إن كانوا يستحقون القتل أم لا.

وعندما يرفض الرسول (صلى الله عليه وسلم) ببطولة فذة ، أن يجري مجزرة جماعية تأرية شاملة ، في أعقاب فتح مكة ، لآلاف الرؤوس التي وقفت في طريق الدعوة طويلاً ، وطاردت اتباعها وأذنتهم وشردتهم وقاتلتهم وفرضت عليهم العزلة والجوع ... ويسحب الراية من القائد الأنصاري الذي أعلن عند مشارف البلد الحرام : " اليوم يوم الملحمة ... اليوم تستحل الحرمة " ، ويصدر بعد قليل عفوه العام في ظروف كانت كل المبررات تبيح له أن يسترخص دم الكفار ويحصد رؤوسهم حصداً باسم حركة الإسلام التقدمية ، وحتمية انتصار التوحيد على الوثنية ... عندما فعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذلك كله منح تاريخنا وتاريخ البشرية كله موقفاً نادراً إزاء التعامل مع الدم الإنساني ، واحترامه ، وحمايته ، من الترخّص والتبذّل والاحتقار.

في ظلال قيادة كهذه ، وعقيدة سمحة كعقيدة الإسلام ، أثر المسلمون ، بما فيهم المكيون الطلقاء ، أن ينطلقوا لقتال أعدائهم في الداخل والخارج ، مجاهدين ، فاتحين ومحزّرين ... مسترخصين دماءهم ، بإرادتهم واختيارهم الحرّ ، الأمر الذي جعلهم يتفوقون على حركات الرّدة الخطيرة ، ويتحركون لوضع العالم بين أيديهم.

وما أعمق الفارق وأشدّه بين أمتنا وهي تنتمي لقيادة تعزّ دم أبنائها وتحميه وتكرمه ، فيختارون أن يسترخصوا دماءهم وهم يقاتلون العدوّ لتنفيذ أهداف تلك القيادة وبرامجها ، وحماية فكرها ونشره في العالم ، وبين أمتنا نفسها وهي تخضع لقيادة تحقر دم أبنائها ، وتهدره وتضيّعه ، فلا يكون بمقدور هؤلاء ، وقد أترع الخوف خلائهم ، وملاً كل مساحات وجودهم ، الآ أن يجبنوا أمام العدو ويفرّوا بين يديه كالأغنام. فعلام يسفكون دماءهم في سبيل قيادة قد تولّت هي نفسها كبر هذه المهمة وملاّت حياتهم إرهاباً ودماءً ؟

إن مؤرخاً صليبياً - اشتراكياً (!!) مسموماً كبندلي جوذي يرى في موقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذلك ، مهادنة لأرستقراطية قريش ، ورجعية ، وتأمراً على مصالح الجماهير !! ويسأل أحد رؤساء محاكم الشعب التي تستخدم كأداة قانونية في الظاهر ، لتنفيذ عمليات القتل الجماعي ، عن المقياس الحقيقي للثوري المخلص فيجيبه الحاكم قائلاً : بقدر ما يسفك من دماء أعداء الثورة ومعارضيه ، وبالسرعة التي يصدر بها أحكام الإعدام ... ونقرأ في معطيات الفكر التقدمي المعاصر عن (العنف الثوري) الذي لا يعدو أن يكون تبريراً للقتل ، وشهادة مؤدلجة لصالح أعداء الإنسان.

ويبقى موقف رسولنا (صلى الله عليه وسلم) بعد هذا كله ، شرفاً للإنسان ، وكرامة لوجوده ، وانتصاراً لحريته ... وتبقى أمتنا متأرجحة بين انتماء لقيادة صالحة تعزّز دماها ، ويتحتم أن تصل بها إلى مراكز السلطة من أجل أن تخرج إلى المعركة مسترخضة دماها في سبيل أهداف أكبر ... وبين خضوع لقيادات طالحة تحتقر دماها ، فتخرج إلى القتال جبانة مذعورة بعد أن أذلت نفوسها عمليات القتل الجماعي وسفك الدماء .

هذا هو أحد مفاتيح قضيتنا في فلسطين ... ولن تكون مليون بندقية بقيادة على تحرير شبر واحد من الأرض ، على أيدي مقاتلين لا تزال آثار السياط مطبوعة على ظهورهم ، ولا تزال دماء إخوتهم وأصحابهم الذين قتلوا في الداخل ، تشدهم شداً إلى الهزيمة والفرار ... إنهم غير مستعدين أبداً أن يقاتلوا وجلادوهم في الداخل يقطفون ثمار النصر والهزيمة على السواء .

الكلمة الطيبة صدقة ...

ما أجمل تعاليمك يا رسول الله ... انها تريد أن تجعل الحياة الاجتماعية مترعة بالألفة والمحبة والانسجام ... وأن تكون العلاقات بين الناس خالية من شوائب الأذى والكراهية والجفاء والبغضاء.

ونحن اليوم بأمس الحاجة إلى هذه التعاليم الوضيئة ... أن تسود المودة بين المواطنين ، وألاً يسمع بعضهم بعضاً إلاّ الكلمات العذبة الودودة التي تزيد الروابط الاجتماعية قوة ، والتي تمنح الحياة اليومية طعماً عذباً ... في البيت ... في المدرسة ... في المسجد ... في السوق ... في الشارع ... في المؤسسة ... وفي كل مكان.

ولنتذكر أن نقطة الارتكاز في بناء أي مجتمع متحضر على مدى التاريخ انما هي منظومة القيم الخلقية والسلوكية ، وأن تتميتها والحفاظ عليها هي التي تجعل المجتمعات تمضي قدماً في سلم الحضارة ، ولهذا قال الشاعر أحمد شوقي :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والكلمة الطيبة هي واحدة من هذه القيم التي تلعب دوراً كبيراً في بناء المجتمع ، وتماسكه ، وتمكينه بالتالي من المضي في طريق التقدم.

ومن منا لم يتلق يوماً كلمة سامة ، أو عبارة جارحة ، تصدر عن أناس لم يتحصنوا بالأخلاق ، فنكون كالكساكين التي تدمي وتمزق ، الأواصر والعلاقات ، وتستأصل المحبة من قلوب الناس ؟

ومن منا - كذلك - لم يتلق من هذا المواطن أو ذاك ، كلمة طيبة تنزل على قلبه كالماء الزلال ، وتفجر فيه ينابيع المحبة للآخرين ، والرغبة الجادة في التقرب إليهم والتعاون معهم لتحقيق الأهداف العامة التي ينشدها الجميع ؟

وللأسف الشديد فان العائدين من ديار الغرب طالما تحدثوا عن (الكلمة الطيبة) المعلقة على ألسنة القوم هناك ، وأجدر بنا ، نحن أحفاد الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) أن نتخلق بذلك ... ليس هذا فحسب ، بل إن البسمة التي نقابل بها وجوه الآخرين ، كادت أن تغيب من حياتنا هي الأخرى رغم أن رسولنا عليه السلام أمرنا بها في حديثه الشريف : (تبسمك في وجه أخيك صدقة).

ولعلنا نكون أكثر جدية في التعامل مع هذه التعاليم من أجل حياة أكثر عذوبة وانسجاماً وجمالاً ...

أن تقول لأخيك الذي أخطأت معه خطأ بسيطاً : (آسف) فكأنك تزيل من نفسه - لاحظتها - ما قد يسبب له الأذى الذي سرعان ما ينقلب حقداً وكراهية وبغضاء قد تفترس جملته العصبية ، وتكون أنت - من جهتك - قد خسرت ، وربما إلى الأبد ... هذا كله يمكن ألا يحدث بإعمال الكلمة الطيبة في علاقاتنا الاجتماعية.

أن تبتسم في وجه أخيك - إذا أخطأ معك - فتزيل من نفسه دوافع الخطأ ، وتدفعه دفعاً في الاتجاه المقابل تماماً ... إلى حالة من المحبة والأريحية والاعتذار ، فتعود العلاقة المتأزمة بين الطرفين إلى وضعها الطبيعي تماماً من الألفة والتجاوب والانسجام.

ثمة ابعاد نفسية واجتماعية تترتب دائماً على مواقفنا من بعضنا البعض ، ولطالما تضخمت " الحالة " الخاطئة تضخماً سرطانياً يقود إلى ما لا تحمد عقباه ... ولطالما تحولت إلى " جريمة " قد تقود حتى إلى القتل ... ناهيك عما تسببه للطرفين من معاناة نفسية مترعة بالحقد والرغبة المكبوتة في الانتقام.

هذا كله ما كان له أن يحدث لو عرفنا كيف نشغل " الكلمة الطيبة " و " البسمة الحانية " في حياتنا اليومية وعلاقاتنا الاجتماعية ... ولنتصور حياة تخلو من هاتين ، وتستبدل بهما الكلمة الجارحة والنظرة الحاقدة ، ماذا يمكن أن تقطع من أواصر ، وتقود من سوء.

والرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، من أجل أن يبعدنا عن هذا المصير الكالِح ، ويحببنا بنقيضه الوضيء ، يعلن عن الأجر الكبير لكل من يطلق لسانه بالكلمة الطيبة ، وملامحه بالبشاشة والمحبة ، ويعتبر ذلك " صدقة " تدخل في رصيد المؤمن رقماً إيجابياً سيجده يوم الحساب ...

وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي جعل الكلمة الطيبة والبسمة الوضيئة تساوي ما ينفقه المسلم على الفقراء والمحتاجين من كدحه الخاص ... فان هذه جميعاً - والحق يقال - تعمل عملها في الحياة الاجتماعية والنفسية صمامات أمان تحميها من القطيعة والكراهية والحقد والبغضاء ...

رفض للتشدد والغلو ...

في سيل متدفق من الأحاديث يعلن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رفضه القاطع للغلو والتشدد ، ويدعو للتيسير ... إنه يعرف جيداً أنه بعث بالحنفية السحاء ، فلتكن الحياة الإسلامية إذن ، سمحة ميسرة بما يجعلها كفاء هذه اللافتة العريضة التي تعلن عنها .
ومن أكثر من زاوية ، وعبر جملة من الممارسات والخبرات التي يتخذ منها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسائل للإيضاح ، يجد المسلم نفسه قبالة تأكيد واضح لا يقبل لجاجة ولا جدلاً ، في أن هذا الدين ما جاء لكي يضيّق الخناق على الناس ، ويعنتهم ، ويكلفهم ما لا يطيقون ، وإنما ليطلب منهم ، ويضع على عواتقهم ما يناسب قدراتهم البشرية التي منحهم الله إياها ، لكي ييسر عليهم ، ويطلب منهم ما يطيقون ، ويفتح أمامهم السبل لحياة طيبة سهلة ميسرة ، رغم ما فيها من الزامات وتكاليف ... بل إن هذه بالذات هي التي تمضي بعجلة الحياة وفق أكبر قدر من التوازن ، والتوحد ، والائتمان ، والاطمئنان ، والرضا ، وبدونها ستتقلب على الناس وبالأول ، بما تنطوي عليه من جموح ، وقلق ، ولهات ، وهم وغمّ ، ونوازل وأحزان ... إنه دين التحرير لا دين التقييد ﴿ ... وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٥٧). وليس من جرب كمن لم يجرب ... ولقد قالها القرآن الكريم متحدثاً عن كلمات الله بأنها ﴿ ... وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ... ﴾ (سورة يونس : الآية ٥٧) ، وكل ما سيأمر به كتاب الله ، كل ما سيطلبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أتباعه ، إنما هو إعانة على التحقق بهذا (الشفاء) ، وبكل من تنطوي عليه الكلمة من معانٍ ودلالات .
عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : (كان رسول الله إذا أمرهم ، أمرهم من الأعمال ما يطيقون ، قالوا : إنا لسنا كهيتك يا رسول الله ، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول : إن اتقاكم وأعلمكم بالله أنا !!) .
إنه (صلى الله عليه وسلم) يعرف جيداً ما يريده الله سبحانه من عباده ، شفقة عليهم ورحمة بهم ، ويعرف - كذلك - أن التقوى ليست بالضرورة إهلاك للنفس ، بل بالعكس ، التعامل معها وفق ما جبلت عليه ، وأخذها بالرفق والسماحة لكي تقدّم أقصى ما تطيق .
عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه) ... الدين يسرّ وبهاتين الكلمتين يختصر الرسول المعلم الأمر كلّهُ ...
وعن عائشة (رضي الله عنها) أن النبي دخل عليها وعندها امرأة ، فقال : من هذه ؟ قالت : فلانة تذكر من صلاتها . قال : مه ، عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا . وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه) ... ألي هذا الحدّ يا رسول الله؟! أن تحذّرنا من

ملل الله (جلّ في علاه) إذا مللنا ، وتطلب منا - بالتالي - أن نتعامل مع الأمور بقدرها من القصد والاعتدال حتى لا نملّ فيمَلّ الله ... يا سبحان الله ... ما هذه الرؤية المترعة بالشفافية ، والتي ترسم هذه الصلة الحميمة بين الله والإنسان !؟

ثم إن الله (سبحانه وتعالى) يريد من المسلم إدامة فاعليته الدينية في حلقاتها كافة ، ولن يكون ذلك إلاّ بالتعامل معها بالممكن وليس بالمستحيل .

صحيح أن الإسلام فتح الطريق لكل من يريد أن يبذل جهداً أكبر ، وأن يمضي خطوة أبعد في طريق الصعود ، ولكنه إدراكاً منه للتكوين البشري ، رسم حدوداً دنيا هي بمثابة القاسم المشترك الأعظم للناس كافة ، وقبل بها ، وبذلك حقق هدفين : استئصال الإحساس بالتألم والتقصير من النفس البشرية من جهة ، وفتح الطريق . في الوقت نفسه . تطوعاً واختياراً ، وليس إرغاماً وإلزاماً ، لمن يريد أن يمضي قدماً إلى فوق !!

عن ابن مسعود قال : (كان النبي يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهية السامة علينا) ... إنه هنا يمنح الدعاة والعاملين تعليماً في غاية الأهمية : ألاّ يأخذوا سامعيهم وطلبتهم بالجهد المتواصل الذي لا يسمح بلحظة واحدة لالتقاط الأنفاس ، أو الترويح عن النفس ، ولا يضعوهم في دائرة السامة التي تفقد الإنسان القدرة على التلقي والمتابعة والتركيز .

وهو تعليم يمكن ، إذا أحسنّا التعامل معه ، بالنسبة المطلوبة ، أن يخدمنا في انشطتنا الإسلامية ، فما هي ذي بعض الفضائيات الإسلامية تلحّ في الجَدّ ، ولا تترك في برامجها محطات للراحة والترفيه والاستجمام ، فينصرف عنها المشاهدون ، أو أنهم يتابعونها ولكن ذهنهم شارد في مكان بعيد .

ويعود رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (فيما رواه أنس) لكي يقول : (يسّروا ولا تعسّروا ، وبشّروا ولا تنفّروا) وهو خطاب لا يدرك أبعاده الآ التربيون الذي يعرفون جيداً ، أنهم سيخسرون تلامذتهم ، أو في الأقلّ سيضيّعون جهودهم عبثاً ، إن ساقوهم إلى التنفير وكلفوهم ما لا يطيقون .

والرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يريد أن يحصر التيسير والسماحة في دائرة العبادة ، كما قد يخيل للبعض ، إنما يمدّها إلى أفاق الحياة كافة ، ويجريها في عروقها وشرابيينها ، لكي تربو وتنقض وتتجاوز التيبس والكراهية والجفاء ... إنه - فيما رواه جابر بن عبد الله - ينتقل بها إلى دائرة المعاملات فيقول (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) .

وكلتا يذكر ، والمرارة تملأ فمه ، ما يحدث في (السوق) بين الكثيرين من البائعين والمشتريين : الغش والخداع ، والتطفيف ، والأيمان الغموسة ، والسباق المحموم بين ثعالب يريد

كل منها أن يتفوق على الآخر ... ويذكر في الوقت نفسه الحالات النادرة ، المترعة بالسماحة ، في عمليات البيع والشراء ، ويذكر ما تنطوي عليه من عذوبة وإغراء !

وما يلبث الحسم أن يجيئ من لدن الرسول المعلم ، فيما رواه عبد الله بن عمر إذ قال :
(كنا إذا بايعنا رسول الله على السمع والطاعة ، يقول لنا : فيما استطعت) !

منذ البدء ... لحظة التأسيس الأولى للانتماء ... وفي ظلال قدسية المبايعة وجلالها ، كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يؤكد على الاستطاعة ، ويأمر بها ، كي لا يذهب المبايعون بعيداً ويشتط بهم النوى ! وهو (صلى الله عليه وسلم) يذكر أتباعه بأن قاعدة هذا الدين هي (الحلال) ، والحرام هو الاستثناء ، وأن ثمة مساحة كبيرة جداً منحت لهم كي يحيوا حياة طيبة ، وأن عليهم - بالتالي - ألا يضيّقوا واسعاً ، أو يحزّموا ما أحلّ الله ، بالتشديد على أنفسهم ، فيقعوا في الخطيئة نفسها التي مارسها قبلهم اليهود والنصارى ... والحديث الذي يرويه ابن عمر واضح الدلالة في هذا المجال ... قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :
(لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً) ... وبهذا يقطع (صلى الله عليه وسلم) الوسواس اللعين الذي يتسلط بصورة قهرية على بعض (المتشدّدين) ، ويصدّهم عن العديد من المباحاة خشية أن تكون حراماً ، وهي حالة تجعل الحياة الدنيا شيئاً لا يطاق من التضيق والجفاء والتيّس ، وغياب اللمسات الإنسانية ، وربما الرحمة والحنان ... فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت : (جاء أعرابي النبي فقال : أتقبّلون الصبيان ، فما نقبلهم !! فقال النبي : أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟) .

ومرة أخرى يعود الرسول المعلم (صلى الله عليه وسلم) لكي يحسم المسألة كلها بكلمات قلائل تؤكد على أن التيسير ، وتجاوز الغلو والتشدد ، مطلوب في ممارسات المسلم كافة ، ماضٍ لكي يغطي نهر الحياة على تدفقه وامتداده ... عن عائشة (رضي الله عنها) قالت قال النبي (صلى الله عليه وسلم) (إن الله يحب الرفق في الأمر كله) !

الله (سبحانه وتعالى) هو الذي يحب الرفق في ممارستنا كافة ... افنخالف عن أمر الله ونجهز على الرفق بسكين الغلو والتشدد !؟

المجتمع السعيد ...

هكذا يريد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مجتمعاً آمناً متضامناً متواداً متحاباً وسعيداً ... إنه يخاطبنا بحسم ووضوح فيما رواه أنس : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ... لا يؤمن ... هكذا ، وإلا فإن إيمانه مدسوس ومشكوك فيه. ولنتخيل لو أن جميع أفراد المجتمع أحبوا لإخوانهم ما يحبونه لأنفسهم كيف سيكون الحال ...

إننا لا نحب لأنفسنا إلا الخير ، بكل ما ينطوي عليه من قيم ومفردات ، وفي سياقات الحياة كافة ، فلو أننا أردنا هذا للآخرين ، لو أننا لم نقف عند حافات النيات ، ومضينا قدماً لتفعيل النية وتحويلها إلى أمر واقع في حياة الناس ... فان لنا أن نتصور كيف سيكون الحال في مجتمع تمحي فيه الأثرة ويسود الايثار ...

إن مساحات وبقعاً واسعة من التعاسة والشقاء في نسيج اي مجتمع ، منبعها إذا أردنا الحق ، ان كلاً منا " يريدها " لنفسه لا للآخرين ... الأنا تصبح هي الحاكم والموجه لسلوك الناس وصلات بعضهم ببعض ، فلو أننا قدرنا على كسر حدة الأنا هذه ، وانفتحنا على الآخرين ، وأحببنا ان يحصلوا على ما نحصل عليه ، ويصلوا إلى ما نصل إليه ... فان " الايثار " سيكون هو الحاكم والموجه لمفردات السلوك ، وسيقود هذا إلى حياة اجتماعية مترعة بالتوافق والتكافل والتوحد والانسجام ...

ويمضي الرسول المعلم والأب الكبير مؤكداً المعنى نفسه في حديث آخر ، جاعلاً (البيعة) التي هي عقد الانتماء لهذا الدين وأساسه ، منطوية بالضرورة على (النصح) لكل مسلم ... أي على أن يضع أحدنا ، وقد اختار أن يصبح مسلماً ، كل خبراته وتجاربه الإيجابية بين يدي الآخرين ، ليس فقط لكي يدلهم على الطريق ، وانما من أجل إعانتهم على التحقق بأكبر قدر من الخبرات الطيبة التي نملكها ... وبالتأكيد فان تبادلاً كهذا تحت مظلة (التناصح) سيقود إلى تكوين مجتمع ليس كالمجتمعات ... مجتمع تسوده الألفة والمحبة والعطاء المتبادل ... عن جرير بن عبد الله البجلي قال : (إنني أتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقلت : أبايعك على الإسلام فشرط علي النصح لكل مسلم فبايعته على هذا) .

إنه (صلى الله عليه وسلم) يسعى باشتراط كهذا إلى تحقيق الأمن الاجتماعي بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى ، فحين يصبح النصح أمراً ملزماً ... جزءاً من بيعة ، فانه سيحقق هدفين في وقت واحد : ألا يفترس أحدنا حقوق الآخرين ... وأن يعينهم في الوقت نفسه على التحقق بها ، فيسد بذلك كل بوابات السوء التي يمكن أن تنفتح على المجتمع بالشر والأذى وتضييق الخناق على سلمه وتواقفه ...

وفي المقابل فإنه (صلى الله عليه وسلم) يحذّر من الظلم لأنه أخط دركات الأثرة والأنائية ... أن نبنّي مكاسبنا على حساب الآخرين ، وأن نسعد أنفسنا بظلم الآخرين ...

ان ظلم الآخر هو النقيض الكامل (إذا صح التعبير) لمحبة الآخر ... انه الأخذ بالحق والباطل بينما المحبة هي البذل والعطاء ... ولنا أن نتوقع كيف سيقود الظلم إلى تفكيك عرى المجتمع وتمزيق نسيجه وسرقة أمنه وانسجامه ...

وللتنفير من الظلم ، وتحقيره ، ونفيه من العلاقات الاجتماعية واستئصال شأفته يلجأ (صلى الله عليه وسلم) إلى التخيل الحسيّ أو التجسيد ، ليس هذا فحسب بل إنه يستحضر معنا ما سيؤول إليه يوم الحساب ... عن ابن عمر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال (**الظلم ظلمات يوم القيامة**) . وعن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول (**من ظلم من الأرض شيئاً طوقه من سبع أرضين**) ... إنها الممارسة المرذولة التي تتقلب على أصحابها ظلمات يوم القيامة وتطوقهم من جهاتهم السبع !

وهو (صلى الله عليه وسلم) يلجأ مرة أخرى إلى التخيل الحسيّ أو التجسيد في سعيه لتقديم الصورة الوضيئة للمجتمع المسلم المتحاب المتواد المتضامن المتكافل الآمن السعيد ... عن أبي موسى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**) ثم شبك بين أصابعه . وهذا هو أقصى ما يطمح إليه ، ويتمناه ، مجتمع من المجتمعات .

موقع وسط بين الغلو والتقصير ...

فئتان من المسلمين كان الرسول المعلم (صلى الله عليه وسلم) يبذل جهده الموصول معهما لإعادتهما إلى الجادة ، ووضعهما في الاتجاه الصحيح ... في موقع وسط بين الغلو والتقصير ... بين الإفراط والتفريط ... بين التشدد والتسيب ، لكي تكونا أقرب إلى روح هذا الدين ، وحنفيته ، وسماحته ، وصرامته وانضباطه في الوقت نفسه.

الموقع الوسط الذي لا يميل فيه المسلم ولا يجور على نفسه وعلى الآخرين والذي لا يحمل نفسه أكثر مما تطيق ، ولا يطلق لها العنان - من جهة أخرى - فتتغلب وتتسيب ...

إنه (صلى الله عليه وسلم) كان يخشى اندفاع بعض أصحابه باتجاه القطب البعيد طلباً للأجر ، أو تحسباً من الوقوع في الخطأ والتقصير. وكان يحذر - في الوقت نفسه - بعضهم الآخر ، ممن يشدهم الإلف والاعتناده بعمقه الزمني ، وثقله الاجتماعي والنفسي ، إلى التقلت والتساهل الذي يتجاوز حدوده المعقولة ... ولذا نجده (صلى الله عليه وسلم) يصدر سلسلة من التعاليم والتوجيهات ، ويمارس جملة من المواقف ، للعودة بأولئك وهؤلاء إلى نقطة التوازن المطلوب ، وإغرائهم بها ، وإلزامهم بمطالبها.

إنه - مثلاً - يقول : (لا تزال أمتي على خير ما عجلوا الفطور وأخروا السحور) ، من أجل دفع أتباعه إلى التزام اليسر في التعامل مع ظاهرة الصيام ، وعدم الاندفاع باتجاه تأخير الإفطار وتعجيل السحور لمدّ مساحة الامتناع والحرمان إلى ما وراء حدودها المعقولة طلباً للأجر !! ولطالما أكد على أصحابه أنه (صلى الله عليه وسلم) يصوم ويفطر ، ويأتي زوجاته ، ولا يكلف نفسه ما لا تطيق ، من أجل أن يكفهم عن مواصلة الصيام ، وما يتطلبه من جهد وحرمان قد لا يكونان مبررين ، ويذكرهم بالآية الكريمة : ﴿ ... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ... ﴾ (سورة البقرة : الآية ١٨٥).

ومثل ذلك شبكة من الأحاديث والتوجيهات والمواقف التي كان يستهدف منها ردّ أصحابه إلى الجادة ، ومنعهم من الغلو الذي ينقل على النفس والجسد ، ولا يتوافق مع روح هذا الدين ، وتيسيره ، وحنفيته السحاء ...

ولطالما نادى أصحابه ، وكل الذين سيجيئون من بعدهم جيلاً بعد جيل : (إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق) !!

ولكنه - في مقابل هذا - لم يكن يتساهل مع فئة أخرى من المسلمين كانت تميل إلى التساهل بأكثر مما يجب ، على حساب الثوابت العقديّة والتشريعية والسلوكية ... واعتمد ، جنباً إلى جنب مع القرآن الكريم ، أقصى درجات التحذير من الذهاب بعيداً في هذا الاتجاه ...

والشواهد كثيرة لا يحتملها مقال كهذا ، وهي معروفة للجميع ... ولذا سأقف عند واحدة منها فحسب : نظام الصلاة في المسجد ... الوقوف صفوفاً منتظمة خلف الإمام دونما أي ميل أو انحراف ... وممارسة الركوع والسجود وراءه بتوقيت محسوب لا يسمح لأي مصلي على الإطلاق أن يربكه أو يخرج عليه.

إن كثيراً من الذين انتموا إلى هذا الدين ، وبخاصة في أخريات عصر الرسالة ، جاءوا يحملون معهم تقاليد البداوة وعاداتها التي ترفض الانضباط والنظام وتعشق الفوضى والتسيب ، وكان لابد من بذل جهد مضاعف معها ، وبخاصة في مسألة تعبدية كالصلاة التي هي عمود الدين ، من أجل تعليمها ، بل إرغامها على " النظام " ... واعتمدت أقصى درجات التنديد بمن يشذ عن ذلك ، (إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج) ، كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول لهم ... واستووا صفوفاً (ولا تدرؤا فرجات للشيطان) ... بل إنه (صلى الله عليه وسلم) مضى إلى أبعد من ذلك ، فنَدّد بالذين يسبقون الإمام في ركوعه وسجوده ، وحثّهم من أن يمسخوا حميراً يوم الحساب !!

ونحن نستطيع أن ندرك الحكمة من موقف متشدّد كهذا ، بمجرد أن نتذكر أننا أمام معادلة صعبة ... حالة من التسيب واللا انضباط ، وكراهية النظام ، عمرها مئات السنين ، كان على الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يردّها إلى الجادة في سنوات معدودات ... شأنها شأن عادة شرب الخمر وتأصلها في الحياة العربية الجاهلية لمئات السنين.

ولقد نجح هذا الدين ، وآياته البيّنات ، ومعلّمه الكبير ، في الاختبارين معاً ... وتلك هي إحدى معجزات الإسلام ... بحيث أن الكثير من الغربيين " المتحضرين " الذين انتموا إلى هذا الدين ، كانت رؤيتهم للصلاة الإسلامية المدهشة في نظامها ، عاملاً من أهم العوامل التي ساقنتهم لهذا الانتماء ...

وثنية بالطول والعرض ...

للعصر الحديث وثنيته هو الآخر ... وثنية (الصورة) التي تعلق على رؤوس الناس في دوائرهم ومؤسساتهم ، وتباع وتشتري في الأسواق ، وتعلق على الصدور ، ويضاف بها في المناسبات وفي غير المناسبات ... وتؤطر ، وتمسح جيداً ، ويقف العبيد الجدد إزاءها معجبين ... خاشعين !!

للعصر الحديث وثنيته هو الآخر ... ولكنها وثنية بالطول والعرض فقط ، بينما كانت أوثان الجاهليين في العالم القديم تملك العمق أيضاً ... ربما لأن فن التصوير لم يكن قد استكمل أسبابه بعد ... والأمر سواء ... صورة تعلق على الرؤوس الكبيرة في الأمة وتوقرها جماهير الناس ... أو وثن يطوف به رجال الملاء ، وتمسح عند أقدامه عامة الناس !!

ولحظة دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكة فاتحاً ، وانتهى إلى الكعبة ، لم يفرق وهو ينزل معوله في أوثانها بين الحجارة المنحوتة ، وبين الصور البدائية للأنبياء السابقين فأمر بإزالتها جميعاً ، وقال عن صورة مرسومة على جدار الكعبة لإبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) وهما يستقسمان بالأزلام : (كذبوا ، ما كان إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بها قط) .

إن الإسلام لم يحرم النحت أو التصوير لذات النحت أو التصوير ، ولكنه حرم كل ما من شأنه أن يقود الناس إلى نوع من التبعّد الوثني لأبناء جنسهم ، في أي زمن أو مكان ، ما دام الله سبحانه قد خلق بني آدم كلهم سواء ... ومن ثم فقد لبس المسلمون ثياباً مرسومة ، واستخدموا ستائر منقوشة ، واتكأوا على وسائل مصورة وملونة ، وحفروا ونحتوا المحاريب والمنابر والمآذن والقباب ، ولم يقل أحد أن هذا حرام !

لكن هذه !

هذه العلاقة المزيفة ، والمحزنة في الوقت نفسه ، بين الإنسان الذي جاء الدين لكي يحزّره من الأوهام ، وبين الصور والتماثيل التي تذلل عنقه ، وتحني رأسه وهو المخلوق الذي أريد له أن يكون (سيداً) على العالمين ! وها نحن الآن في العصر الحديث نعود ثانية إلى زمن الوثنية .

إن أشد الدول تقدماً تكتسح زعماءها اليوم هذه الروح ... هذه الرغبة العاتية في أن يفرضوا التبعّد والتقدّيس على أتباعهم وشعوبهم ، وفي أن يخيلوا لهم ، بشكل أو بآخر ، أنهم مصنوعون من طينة أخرى غير طينتهم ، متربعون في مواقع أعلى بكثير مما يقدرّون على الصعود إليه ... إن أي زعيم جديد يجد نفسه مدفوعاً إلى هذا الموقف ، فلا يقدرّ له قرار حتى يرى (صورته) معلقة في المؤسسات والدوائر والأرقة والشوارع والساحات والميادين ، ملصقة على

جدران المساجد والكنائس والدور ... مرفوعة على الجباه والصدور ، مطاف بها في التظاهرات والمسيرات.

إن هذا يذكرني بما قاله يوماً (أكاناسيلوني) الشيوعي الإيطالي ، الذي ارتد عن الشيوعية لأكثر من سبب ، من أنه رأى جموع الناس في موسكو - في ثلاثينيات القرن الماضي - تحج إلى قبر (لينين) المصنوع من الخشب المتقن ، وانهم يقفون طوابير كي يجيئ الدور على كل واحد منهم في أداء العمرة إلى الصنم ، وأنه حدث أحد رفاقه هناك بأنه يتمنى لو يتاح له إحراق هذا القبر واستئصاله حماية لمبادئ (لينين) نفسه !!

ومن ثم فان وثنيتنا الحديثة ليست وثنية الطول والعرض فحسب ... ليست وثنية الصورة المسطحة فحسب ... ولكنها ستؤول ثانية إلى ما كانت عليه شقيقتها البائدة : وثنية الأصنام التي يطاف حولها ، وتقف جموع الناس أمامها بخشوع ، منكسة الرؤوس والأبصار ...

ولا حول ولا قوة إلا بالله ...

وقفة عند بوابة رمضان ...

ها هي ذي أمة المليار ونصف المليار مسلم تقف عند بوابة رمضان معاهدة الله (سبحانه وتعالى) على الامتناع عن الطعام والشراب ... وحفظ الجوارح من كل شائبة ، وملاحقة خطرات القلوب ... معاهدة إياه على مجافاة النوم والاسترخاء ... وعلى سهر الليالي ... ما الذي يعنيه هذا سوى أن هذا الشهر تجديد للعقد المقدس بين الله والإنسان ... وشحن لإرادته ... واشعال الفتيل في طاقاته الروحية للمضي إلى فوق ... من أجل ذلك يقول (جلّ في علاه) في حديث قدسي (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا الذي أجزي به ...)

يا الله ... ما أروعها من عبارة تهزّ الضمائر والقلوب ... وتغري بالانسلاخ الكامل عن إغراءات الحياة الدنيا والتجرد لله ... (فانه لي وأنا الذي أجزي به) !!
فيا أيها المسلمون في كل مكان اكسروا التقاليد الرتيبة التي جعلت من رمضان مجرد تغيير اعتيادي في روتين الأيام ... وتذكروا أنه تجديد للعقد المقدس وأن عليكم أن تستجيشوا أعماق نقطة في خلايا القلب والعقل والروح والوجدان ، من أجل أن تكونوا بحجم رمضان كما يريد الله ورسوله ... لا كما اعتاده المقلدون ...

إنه يجيئ في كل عام مرة واحدة يحمل لكم البشري ... بشري التطهر من كل ما مارستموه من أخطاء ، والانطلاق من جديد ، متحررين ، متخففين ، للاقتراب أكثر فأكثر من رضا الله !!
والذكي الذكي من يعرف قيمة الفرص المتاحة أمامه لكي يهتبلها ، في إعادة بناء سلوكه ، وسدّ الثغرات التي اخترقه بها الشيطان ، والانطلاق ثانية عبر الصراط الواصل إلى الله ... إن هذا الدين سخّي مع اتباعه ... والله (سبحانه وتعالى) هو الأكثر سخاء ... عندما فتح الطريق على مصراعيه للخروج من دائرة (الإثم) إلى فضاء التطهر والنقاء ... ومنحهم الفرص التي لا تعدّ ولا تحصى للعودة إليه ... (جلّ في علاه) ...

ورمضان ، هو واحد من هذه الفرص للتحقق بالمطلوب ... فليست الخطيئة أمراً كلياً يطوّق الإنسان من جهاته الأربع فلا يستطيع الخلاص منها ، بإرادته ، ولايّد من معاونه الآخرين ... انما هي في المنظور الإسلامي جزيئات بسيطة تنتشر كالطفح على حافات السلوك وتنتظر الجهد البشري لإزالتها ... وهو جهد ليس بالصعب ولا بالمستحيل إذا صحّ العزم وخلصت النيّات ...

ويجيء رمضان لكي يمنح المنتمين إلى هذا الدين الفرصة لإزالة الطفح واستعادة السوية الصحية للسلوك ...

فانك بمجرد أن تشحذ إرادتك فتكف عن الطعام والشراب ، وتحفظ جوارحك من كل شائبة ، وتلاحق خطرات القلب ... تكون قد بدأت الطريق ... ومع الكف والحفظ والملاحقة ، جهد موصول من التعبّد والتحنّث وسهر الليالي بحثاً عن المزيد من الكسب للرصيد الإيجابي المفتوح ، وتضييق الخناق على بؤر الشر والفساد والمروق ...

" فإنه لي وأنا الذي أجزى به " لأنه جلّ في علاه يعلم ما يكلفه الصوم من مشقة ، وما يتطلبه من صبر ، ليس - فقط - عن الطعام والشراب وإنما عما اعتاد عليه الناس ، وأصبح جزءاً أساسياً من حياتهم اليومية عبر أحاديثهم ومعاملاتهم من رياء وغيبة وتنابز ... وغيرها من عشرات الممارسات الخاطئة التي يجيئ التوقف عنها بقوة الإرادة الإيمانية بمثابة إعلان للحرب على " الخطيئة " مهما ضوّلت ودقت ... وهذا يتطلب جهداً فائقاً لن يكون جزاؤه إلا ذلك الذي يجيئ من عند الله (سبحانه وتعالى) وما أعظمه من جزاء ...

ضرورات الفقه الحضاري ...

الفقه الحضاري يعنى باستقصاء وتحليل قوانين الحركة التاريخية ، أو سنن الله العاملة في التاريخ ، تلك التي ترفع الأمم والجماعات والدول وتنشئ الحضارات ، أو تخفضها ، وتصيبها بالتفكك ، وتقودها إلى الأفول والانهايار .

ونحن اليوم بأمر الحاجة إلى فقه كهذا ، لإضاءة مسائل واشكاليات عقدية وتاريخية ومعاصرة ، وتقديم أجوبة أكثر دقة بخصوصها .

والقرآن الكريم وسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فضلاً عن تراثنا الفكري ، ومعطيات فلاسفة ومفكري التاريخ ودارسي الحضارات المحدثين ، يتقدمون جميعاً بالإجابات المطلوبة ، إذا عرفنا كيف نحسن التقاطها وإدراكها .

هناك - على سبيل المثال - ضرورة إعادة النظر في الدراسات التقليدية المعنية بالسيره النبوية والتي جعلتها ، أو اختزلتها بعبارة أدق ، في عرض عسكري لغزوات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والتحوّل إلى التعامل معها كمشروع حضاري تؤكده معطيات السيرة نفسها ...

هناك - أيضاً - ضرورة إعادة النظر في مناهج دراسة وتدريس مادة (حضارة الإسلام) في المعاهد والجامعات ، وتجاوز المنهج التفكيكي المعتمد منذ أكثر من قرن من الزمن ، إلى منهج شمولي يعرف كيف يتابع " شخصانية " هذه الحضارة ، وحلقات نشوئها ونموها وازدهارها ، وعوامل أفولها وانهايارها في نهاية الأمر .

هناك التحديات الأكثر حداثة كنظرية (نهاية التاريخ) لفرنسيس فوكوياما ، ونظرية (صراع الحضارات) لصموئيل هنتنكتن ، ومعطيات النظام العالمي الجديد ، أحادي القطبية .

وهناك تحديات المشاركة الإسلامية في مستقبل العالم ، وإعادة صياغة المصير البشري ، ودور الحضارة الإسلامية - في حالة انبعاثها - في هذه المشاركة ، ومساحتها الممكنة .

وهناك ما يطلق عليه اليوم (المشروع الحضاري الإسلامي البديل) الذي يتحتم على الأمة الإسلامية أن تنسج حيثياته من الأساسيات العقدية والتشريعية في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وسوابق الأجداد والآباء ، وإن تؤكد حضورها قبالة انهايار جل المذاهب والنظم الشمولية والوضعية التي استعبدت الإنسان في العالم ، منذ انحراف الأديان الكبرى وعزلها عن أداء مهمتها ...

وثمة قبل هذا كله ضرورة القيام بمسح شامل لمنظومة الآيات والمقاطع القرآنية المعنية بقوانين الحركة التاريخية أو سنن الله العاملة في التاريخ ، وتفسيرها ، من أجل إغناء وإضاءة الدراسات الحضارية الخاصة بالموضوع .

هذه المسائل جميعاً تتطلب فقهاً حضارياً ، أي وعياً بقوانين الحركة التاريخية ، وبالتالي فان على مثقفينا عامة ، وطلبة الجامعات في عالم الإسلام كله بشكل خاص ، والمعنيين بالتخصصات التاريخية والحضارية على وجه التحديد ، أن يولوا اهتماماً أكبر لهذه المطالب والتحديات ، وألاً يكتفوا بمعارف تاريخية وحضارية مفككة ، يتلقونها أو يتعاملون معها على عجل ، ويتخرجون ، مكتفين بالشهادات وحدها ، دون فهم عميق لما يتحتم أن يكونوا على وعي به في سياق تخصصهم المهم هذا.

إن الفقه الحضاري والحالة هذه يغدو ضرورة من الضرورات القصوى لحملة الهمّ الإسلامي في العالم المعاصر ، من أجل ان يتحركوا وهم على وعي تام ورؤية نافذة لخرائط العمل ، في زمن اختلط فيه الحابل بالنابل ، وتداخلت التحديات ، وتقوى فيه القوي على الضعيف ، وسدت المسالك أمام المبادئ والنظم الوضعية ، وازداد ضلال الأديان المحرّفة ... حتى غدا العالم بأمسّ الحاجة إلى مشروع كبير ينقذه من الورطة التي يتخبط فيها ويقوده إلى الصراط ... ومرة أخرى ، وكما يقول روجيه غارودي في (وعود الإسلام) " إن مشكلة العالم المعاصر كونية ولائد للجواب أن يكون كونياً ، والإسلام هو هذا الجواب " .

إنهم ينتحرون !!

(ويليام ستيرون) من أكثر الكتاب الأميركيين المعاصرين شهرة، وهو مؤلف رواية (اختيار صوفي) التي وصل رقم مبيعاتها إلى إحدى عشر مليون نسخة، وقدمتها السينما بالعنوان ذاته.

ويليام أراد أن يضع حداً لحياته ويضم اسمه إلى قائمة الأدباء المنتحرين: ارنست همنغواي وفرجينيا وولف ورومان غاري وجاك لندن وهنري مونترلان وستيفان زفايغ ويوكيو ميشيما ...

كأبة حادة كادت أن تقود ستيرون إلى حافة الجنون ... وبعد أن برأ من أوهامه وهواجسه تماماً تحدث عن الكابوس المخيف الذي سيطر على عقله وحياته. أنه مرض ليس من السهل تفسيره أو فهمه. هاجس غريب وطارئ قد يصيب أي شخص دون تمييز لعمر أو جنس أو مستوى اجتماعي وثقافي. إلا أن الشيء الأكيد أنه يصيب النساء أكثر من الرجال. لا أحد يمكن أن يفهم (سر) هذا المرض إلا الذي وقع في مصيدته والذي قد يقوده للتفكير بالانتحار وهو تصرف مخجل وسري جداً، لأنه ينطوي على أبشع أنواع العقاب.

ويليام ستيرون فكر جدياً بالانتحار ... وبين تفكيره وحيرته باختيار الوسيلة الأكثر ملائمة لإزهاق روحه، كانت ذكريات الأيام الحلوة تهاجمه من كل زاوية من زوايا المنزل، وتتردد على مسامعه ضحكات أبنائه وزوجته ليعدل في النهاية عن الفكرة التي استحذت أياماً طويلة على عقله، وقرر أن يستبدل الانتحار بالعلاج ليتابع مسيرة حياته.

- لماذا أردت الانتحار؟

ويكون الجواب ...

- الكحول ، أو بالأحرى الإدمان على الكحول هو السبب الرئيسي ... هو الذي قادني إلى هذه المرحلة من اليأس فقدت معها الرغبة في الحياة ... هذا ما حدث لأدباء أميركا السابقين : أونيل همنغواي وفوكنر ... الجميع كان يلجأ إلى الكحول لعله يمنحه الهدوء والراحة لأعصابه ولتدفعه إلى الكتابة والإبداع ... الكأس مهمتنا جميعاً ولكن يبدو أننا لم نحسن الاختيار.

هذه هي النخبة العليا في المجتمعات الغربية ... سقفها العالي ... وهي رغم ما يغمرها من ضوء ويحيط بها من تكريم وتقدير، تريد أن ترحل عن الدنيا بصمت ... ما الذي يستطيع المرء أن يقوله إزاء هذا كله سوى أن الإنسان المنقطع عن التبصر الديني سيصل إلى طريق مظلم مسدود مهما أحاطت به الأضواء ومنح من تكريم ... وكأنه يتساءل، وقد تضاءلت الدنيا أمام

عينيه وتكومت تحت قدميه: ثم ماذا بعد ؟ ماذا بعد الشهرة والغنى والمكانة والتكريم والأضواء وإشباع الحاجات الأساسية إلى حد التخمّة؟! إنه الفراغ المخيف والطريق المسدود والنهاية المفجعة المدومة فوق الرؤوس.

وأتذكر مقولة الأديب الفرنسي الوجودي المعروف (البيركامي): " ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى ".

إنه الإحساس المكتظ بالعبثية واللاجدوى ... فليس ثمة قبل الموت وبعده سوى الأشياء ونقائضها ... الحياة المكثفة والعدم ... حلقة مفرغة لا يستطيع الإنسان كسرها والخروج منها مهما حاول ... ومن ثم وكسعي للخروج من دائرة العذاب، يلجأ الإنسان إلى الانتحار لكي يختصر الرحلة المعذبة.

ها هنا تبرز قيمة الدين ... قيمة الإيمان بالله وبالغيب واليوم الآخر ... فهذه وحدها هي التي تكسر الحلقة المفرغة ، وتفتح الطريق المسدود ، وتصل الدنيا بالآخرة ، وتمنح الحياة البشرية طعمها العذب ، وأملها ، ويقينها ، ذلك الذي اغتاله الملاحدة والوضاعون فحكموا بالإعدام على الإنسان والجأوه إلى قتل نفسه.

ويتذكر المرء كيف أن الإنسان في المنظور الإسلامي هو أعلى كائن في هذه الدنيا، وأن من قتله بغير نفس أو فساد في الأرض - كما يؤكد القرآن الكريم - فكأنما قتل الناس جميعاً ... وأنه - بتعبير الرسول صلى الله عليه وسلم - (بنيان الله في الأرض ملعون من هدم بنيانه). ويتذكر جملة الأحاديث الشريفة التي تدعو إلى حماية الدم البشري وتندد بالانتحار باعتباره رفضاً لنعمة الله (سبحانه وتعالى) وعقوباً لسخائه وكرمه وعطاياه ... ويتذكر بعض تلك الأحاديث.

عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فاخذ سكيناً فحز بها يده فما رقأ الدم حتى مات. قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة) (رواه البخاري ومسلم وابن ماجه).

وعن أبي هريرة ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (من قتل نفسه بحديده فحديده في يده يتوجأ بها بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً).

(رواه البخاري والترمذي والنسائي).

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ألا من قتل نفساً معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمته الله فلا يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً) (رواه الترمذي وابن ماجه).

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل)(رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه).

وعن عبد الله بن عمر قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض تلك المغازي ، فهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان). (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار) (رواه الترمذي).

وعن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه) قالوا : وكيف يذل نفسه ؟ قال : (يتعرض من البلاء لما لا يطيق) رواه الترمذي وابن ماجه).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا)(رواه النسائي). وهذا يكفي ...

العولمة الثقافية وتحديات الشاشة الصغيرة

الحديث عن العولمة يطول ، وجبهاتها عديدة ، وقد قيل فيها الكثير ، وكتب الكثير ، لذا سأقف في هذه العجالة عند جزئية محددة، تمثل آلية من آليات العولمة الثقافية وبوابة كبيرة من بواباتها، تلك هي " الشاشة الصغيرة" بمربعها المعروف : التلفاز ، الكمبيوتر ، الفضائيات، والانترنت ، وما يمكن أن يفعله الجهد التربوي في مواجهة تحدياتها ، بعد إذ فرضت هذه الشاشة نفسها على المساحات الأوسع من ديارنا الإسلامية، وأصبحت زائراً يومياً اخترق بيوتنا وعقولنا ، وأوغل حتى باتجاه غرف نومنا ، حاملاً معه سرطان الثقافة الغربية بايجابياتها وسلبياتها ، بعلمها وفنونها ، برؤيتها المادية الصرفة للحياة ، ونزوعها الانحلالي السافل ، وبهيئتها الحيوانية ... بتجاوزها الفاضح لمنظومة القيم الدينية والإنسانية والأخلاقية.

في حالة كهذه يغدو الجهد التربوي مع الأبناء ضرورة من الضرورات ويصبح على الأب والأم أن يضعا نفسيهما في حالة إنذار من الدرجة القصوى والدائمة ، ليس فقط لمراقبة الأبناء ، وإنما لتوجيههم ومنحهم الصيغ الأكثر ملاءمة في التعامل مع الشاشة الصغيرة ، وإلا فإن المستقبل ينذر بالويل ... بضياح الأبناء إزاء إغراء الشاشة الصغيرة وما تمارسه من استلاب وتفكيك لشخصياتهم وقيمهم، واختراق لسلوكهم وإيمانهم.

ولتتذكر حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ...) فهذا هي ذي المسؤولية التي تفرض على الآباء والأمهات ، والمعلمين والمعلمات، في اللحظات الراهنة ، وإزاء تحديات الشاشة ، واجباً ملزماً يتطلب تعزيز القيم الدينية والسلوكية للأبناء، وتحسينهم فكرياً وثقافياً ، وتحديد زمن التعامل مع الشاشة الصغيرة، وبرمجة صيغ الإفادة منها ، فيما يحد من تأثيراتها السلبية ، وربما المدمرة ، على كل المستويات.

إن الشاشة الصغيرة بمربعها المذكور ، توظف اليوم وإلى حد كبير ، لمطالب العولمة الثقافية ، وتأكيد الرؤية الغربية المادية للحياة ، ونشر الفاحشة ، وتشجيع العنف والجريمة والشذوذ ، والتشكيك بالقيم الدينية ، وتدمير الثقة بالذات ، وتأكيد العزلة الاجتماعية ، وتفكيك الروابط الأسرية ، وإشاعة الكسل العقلي ، والثقافة المتضحلة ، الجاهزة ، وإبعاد الكتاب وتقاليد المطالعة ، باعتبارها المعلم الأكثر فاعلية ... هذا فضلاً عن التأثيرات الصحية السيئة، وهدر الوقت ، وتضييق الخناق على مساحات الذكر والعبادة والدعوة إلى الله (سبحانه وتعالى) .

وإزاء هذه كله لابد من تفعيل الجهد التربوي حتى وتائرته القصوى ... لابد من حضور فاعل مؤكد للأب والمعلم والمدرس والأستاذ والشيخ والواعظ والخطيب ... والمسجد والمدرسة والمجلة والكتاب ، والبرامج الفنية والتعليمية الهادفة ، قبالة الأطفال والصبيان والمرافقين والشباب

قبل أن نخسرهم إلى الأبد ... لابد من موازنة ضلال العولمة الثقافي بتعزيز قيم الإيمان وسلوكياته ، عبر نشاط تربوي هادف ، مبرمج ، مرسوم ، في البيت والمدرسة والمسجد وحلقات الإعلام ، والمنتديات العامة ... وإلا فهو الميل العظيم الذي حذرنا منه كتاب الله، والذي يؤذن بالكارثة : (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً).

قيم من خطبة الوداع

عندما حان موعدُ الحج من العام العاشر للهجرة أعلن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه سيحجُ بنفسه في الناس ذلك الموسم وأمر بالتجهز للذهاب إلى مكة. ثم ما لبث أن غادر المدينة في الخامس والعشرين من ذي القعدة. وانهاled المسلمون على بيت الله من كل مكان لكي يشهدوا أول حج على التقاليد الإسلامية الخالصة التي لا دخل فيها من طقوسٍ وثنيةٍ ، وليلتقوا برسولهم الكريم (صلى الله عليه وسلم) ويقتبسوا عنه مزيدا من التعاليم.

وبدأت مراسيمُ الحج فانطلق آلاف المسلمين ، القدماء والجددُ ، وراء نبيهم ومعلمهم وهو يريهم مناسكهم ويعلمهم سننَ حَجهم. ورأى أن يفيد من فرصة التجمع الكبير هذه فيلقي في اتباعه خطاباً جامعاً يؤكد فيه القيم والتعاليم التي بُعث من أجلها ، وكأنه كان يدركُ ، بإحساسه العميق أن هذه هي آخرُ فرصةٍ يلتقي فيها بحشد كبير من أتباعه كهذا الذي يلتقي به اليوم. فوقف بين أيديهم في عرفات وشفقُ المغيب يلقي على جبهته مزيدا من النور والمهابة والجلال ، وراح يلقي كلماته التي سميت فيما بعد بخطبة الوداع ، ومن ورائه رجل جهوريّ الصوت يصرخ بكلمات الرسول عليه السلام لِيُسمِعَهَا أُلوف الحجيج ...

(أيها الناس ، اسمعوا قولي فاني لا أدري لعلي لا القاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا. أيها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم - وقد بلغتُ - فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وان كل رباً موضوع ولكن لكم رؤوسُ أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا عباسِ بن عبد المطلب موضوعُ كله ، وان كلَّ دمٍ كان في الجاهلية موضوع ، وان أولَّ دماءكم اضغُ دمَ بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب - الذي قتلتته هذيل - فهو أول ما أبداً به من دماء الجاهلية ... ايها الناس ان الشيطانَ قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبداً ، ولكنه يطمع فيما سوى ذلك ، فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم. ايها الناس (انما النسيئُ زيادةٌ في الكفر يُضِلُّ به الذي كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدةً ما حَرَمَ الله فيحلوا ما حَرَمَ الله ويحرموا ما أحل الله) .. أيها الناس ان لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا. واستوصوا بهن خيرا فانهن عندكم عوانٍ (أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئا وانكم انما اخذتموهن بأمانة الله ... فاعقلوا أيها الناس قولي فاني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بينا : كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه. تعلُّمن ان كل مسلم أخٌ للمسلم ، وان المسلمين أخوةٌ ، فلا يحل لأمرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت ؟) .

أجابه المسلمون جميعاً : اللهم نعم ، فقال " اللهم أشهد " ... وبعد ذلك بقليل قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) للوفود المحتشدة حوله عند جمرة العقبة ما يُشعر بطول الأجل القريب (خذوا عني مناسككم فعلي لا أحجّ بعد عامي هذا) ... ولم يحج بعد عامه ذاك فعلاً ... وصدقت كلماته ...

انها خطبة موجزة ... خطبة الوداع تلك ... ولكنها تضمنت الكثير من القيم والمبادئ والممارسات التي جاء الإسلام لكي يزرعها في العالم فيحيي بها مواته ، ويفجر العيون في قفره ، ويحيل صحراءه المجذبة إلى حديقة غناء يحيا في ظلالها الإنسان سعيدا متوحدا مطمئنا ...

إن الرسول المعلم (صلى الله عليه وسلم) يعلن ها هنا حماية العقيدة الجديدة لدم المسلم وماله. يضع حولهما سياجاً من الحرمة والوقاية إلى يوم الحساب ... انه الحق العام الذي لن يضيع في حمايته أحد من الناس ... ومع حماية حقوق النفس والأموال مجابهة صريحة للظلم الذي هو نقيض الحق ... وهل ثمة من ظلم كالربا والتأر مما غطى على جاهلية العرب من أقصاها إلى أقصاها ... ليس ثمة ربا ولا ثارات بعد اليوم. وانه (صلى الله عليه وسلم) يبدأ كعادة الأنبياء والشهداء والصديقين بنفسه وأقربائه أولاً لكي يعطي الإشارة بالأسوة ... وليس بمجرد نظريات تطرح وكلمات تقال ...

لقد جاء الإسلام لكي يستأصل عبادة الشيطان بصيغها الفاضحة المنكرة ويقضي على سطوته وهيمنته على مقدرات الإنسان وسلوكه ومصيره ... ولكن تبقى ثغرات ... ومسابر ... صغيرة هنا وهناك ، قد يعود لكي يتسلل منها مرة أخرى ... ويبدأ نشاطه من جديد فرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحذر المسلمين من الا يدعوا هذه الفرصة لخصمهم الأبدي ... إبليس ... وان يقطعوا الطريق عليه ...

وثمة دعوة مترعة بالشفافية والرحمة والمحبة لحماية حق المرأة ... ووضعها في مكانها الكريم .. (انهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً وانكم انما اخذتموهن بأمانة الله) !! وثمة تأكيد على ميراث النبوة العظيم الذي سيتركه فيهم فيمكنهم من مواصلة الحياة الوضيئة التي نقلهم إليها ... كتاب الله وسنة رسوله ... شرط ان يعرفوا كيف يكون الالتزام ... والاعتصام ... والا فانه الضياع ...

وفي ختام خطبته المترعة بالإنسانية تلك يعلن الرسول عليه السلام أخوة المسلمين في كل زمان ومكان ... وتلك هي العلامة المميزة ... الفارقة ... للمجتمع الذي بعثه وصنعه الإسلام من قلب التمزق والتناحر والصراع ، وتلك هي ارادة الله (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بين قلوبهم) ... وصدق الله العظيم.

وتأنس إليه وحوش الغاب

ما أروع الأخبار والأقاصيص التي يزخر بها تراثنا الروحي وكتب التراجم التي تتحدث عن هذا الرجل الصالح أو ذلك ، يخرج إلى البراري فتأنس إليه وحوش الغاب ، وتسير إلى جواره الأسود والضواري.

إنها الصداقة الحميمة التي يعقدها الإنسان المؤمن ، الودود ، المترع رحمة وشفقة ، مع الكائنات من حوله ... ليس مع الأحياء فحسب ، بل حتى مع الطبيعة والأشياء والموجودات ... صداقة فريدة من نوعها تتداح دائرتها لكي تصل بين الإنسان والسموات ... بينه وبين الكواكب والسدم والأجرام والنجوم ... وتعتقد بين الأطراف كافة ما يمكن تسميته بالألفة الكونية التي ما عرفها دين من الأديان ولا مذهب من المذاهب.

منذ البدايات الأولى في العمق الزمني البعيد ، اقتطعت الأرض من الكتلة الكونية ، وأعيد بناؤها لكي تكون جاهزة لاستقبال الإنسان ... الأرض بكل مواصفاتها وحيثياتها ونسبها وأبعادها ... الأرض بفيزيائها وكيميائها وجغرافيتها وجيولوجيتها ... والتي تجعلها مهياة تماما لاستقبال الإنسان : ﴿ أَوْلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة الأنبياء ، الآية ٣٠) ، ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (سورة فصلت ، الآيات ٩ - ١٢).

لقد أريد للأرض ، منذ لحظات الخلق الأولى ، أن تكون مسكناً صالحاً للإنسان .. وأن تنطوي على شبكة من الطاقات والإمكانات والمذخورات التي تمثل خزيناً استراتيجياً لا نفاذ له لخدمة الإنسان ، وتمكينه من مواصلة البقاء.

ومنذ البدايات الأولى وضعت الشمس والقمر في مكانهما المناسب تماما لتقديم الإضاءة والدفء للإنسان ، ورتبت نسب المكونات الغازية بما يتيح استمرارية الحياة ... ورسمت ، من أجل إدامة وصول الماء العذب لأفواه الزرع والضرع والإنسان ، دورة معجزة تنبني حلقاتها المتعاقبة ، بعضها على بعض ، لتحقيق الهدف المنشود.

منذ البدايات الأولى أريد للعلاقة بين الإنسان والعالم من حوله أن تتشكل في أجواء المحبة والألفة والتعاطف.

حتى ونحن نطوف حول الكعبة في مواسم الحج والعمرة ، نشارك السدم والكواكب والأقمار والنجوم دورانها الأبدي الذي يذعن لأمر الله ويسبح بحمده ... في مهرجانها الذي يعبر بلسان الحال عن شهادة التوحيد المطلقة ...

حتى ونحن نقرأ في كتاب الله سورا بكاملها تحمل اسم هذا الحيوان أو ذلك ، وهذه الحشرة أو تلك ، نجد أنفسنا أمام دعوة لعقد صداقة من نوع ما مع هذه الكائنات ... ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة النحل ، الآيات ٥ - ٨). والنحل أوحى إليها ﴿ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنَ الثَّمَرَاتِ فَأَسْأَلُكِ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل ، الآيات ٦٨ - ٦٩). والنمل يتلقى من سليمان (عليه السلام) إشارة السلم بين الطرفين حيث لا خوف من طغيان القوي على الضعيف ، ومن يملك الحيلة على من لا يملكها ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (سورة النمل ، الآيات ١٧ - ١٩) ... صداقة من نوع فريد ليس مع عالم النمل فحسب ، بل مع عوالم الطيور ... فما هو ذا الهدهد يسفر لسليمان في أخطر مهمة سياسية بين مملكتين في الأوج من القوة والجبروت.

منذ البدايات الأولى أريد للأرض أن تترين للإنسان ... أن تمنحه الجمال وان تنتشر في ربوعها الحقائق ذات البهجة .. وأريد للإنسان أن يقابل هذا كله بالشكر والعرفان والامتنان ...
وها هو ذا الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) ينحني على شجرة ورد ... يمسد على أغصانها اليانعة ، ويقول : (ليتني شجرة ورد تعضد) .. ويقف قبالة جبل أحد متواجداً ، متأملاً ، عاشقاً ، ويقول لأصحابه مشيراً إليه : (أحد جبل يحبنا ونحبه) ...
إنه (صلى الله عليه وسلم) يختصر بكلمات قلائل قضية الألفة الميتافيزيقية بين الإنسان والكون ... بينه وبين العالم ... والطبيعة والكائنات ... والأشياء ...

أية علاقة حميمة هي هذه ؟ وأية مساحة كبيرة منحها إياها هذا الدين الذي دأب على وضع الإنسان والموجودات في مكانها الصحيح من خارطة الكون والعالم ... كما أراد لها الله (سبحانه وتعالى) أن تكون !

واحدة فحسب من معجزات هذا الكتاب

ضوابط النحو العربي ومعاييره وقوانينه لم توضع ، كما هو معروف ، إلا بعد عقود من الزمن على بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في ضوء لغة العرب في أقصى درجات ضبطها وتجليها ... فكيف استطاع هذا الرجل النبي أن ينجز كتاباً لم يتطرق إليه أي خلل بأية نسبة كانت في بنيته اللغوية ، رغم أمية هذا الرجل ، ورغم تعامله مع الوحي ، تلقياً وتلاوة ، بطريقة شفاهية لم يستخدم فيها القلم لحظة واحدة ... ورغم تنزل الآيات والسور على مكث ... أي على فترات زمنية تجعل أشد العباقره معرضين للسهو والنسيان ، وتجاوز هذه المفردة أو تلك من شبكة الضوابط ، والوقوع - بالتالي - في الخطأ ؟

كيف بالنبي الأمي الذي لم يكن يحسن القراءة والكتابة ، والذي كان مجرد وسيط بين السماء والأرض ، لنقل ما ينتزل من كتاب الله ؟

إنها معجزة أخرى بكل تأكيد لهذا الكتاب الذي لا تتقضي عجائبه ، جنباً إلى جنب مع معجزات القرآن الأخرى التي تتضفر لكي تؤكد بشكل قاطع لا ينطوي على أي هامش للاحتمال ، وبأية نسبة كانت على الإطلاق ... أنه منزل من لدن حكيم عليم : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (سورة النساء ، الآية ٨٢).

ولطالما أشار القرآن الكريم إلى إحكام البنية اللغوية لهذا الكتاب لكي يستوعبه العربي ، ولكي يتأكد المتلقون من العرب يومها ، ومن الشعوب والأمم التي ستجيئ بعدهم ، أنه كتاب منزل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (سورة النحل ، الآية ١٠٣) ، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (سورة الشعراء ، الآيات ١٩٣-١٩٥) ، ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (سورة الزمر ، الآية ٢٨) ، ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ؟ ... ﴾ (سورة فصلت ، الآية ٤٤).

فإذا ما أضفنا إلى هذه المعجزة اللغوية ، المعجزة البيانية ، وإذا ما أضفنا إليهما المعجزة التشريعية ، والمعجزتين العلمية والمعرفية ، وجدنا أنفسنا أمام عشرات الشواهد ومئاتها على مصداقية هذا الكتاب المدهش.

ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ... أما مرضى القلوب والعقول فان ألف معجزة لن يكون بمقدورها أن تزيل طبقة الصداً عن قلوبهم وعقولهم لكي تفهم وجهاً لوجه أمام الحقائق الناصعة ، وتمنحهم الاقتناع. وهي على أي وجه من الوجوه ، حالة مرضية لا يحسب حسابها لدى الحديث عن إعجاز القرآن.

وفي المقابل فان هنالك المئات والألوف وعشرات الألوف ممن ساقتهم المعجزة إلى التسليم بهذا الدين ، وبالمصادقية المطلقة لكتابه المدهش .

ومن بين هؤلاء عشرات ومئات ممن تحدثوا عن أسباب انتمائهم لهذا الدين وكان يقف على رأسها ولا ريب إعجاز القرآن ...

ومن بين هؤلاء نتذكر المحاولة القيمة التي نفذها العالم الفرنسي المشهور (موريس بوكاي) في كتابه المعروف (التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف الحديثة) ، والتي حاول فيها - وهو الرجل العلماني الذي لا يدين بدين كما أكد هو نفسه - أن يختبر مدى مصداقية المفردات المعرفية التي انطوت عليها الكتب الدينية الثلاثة وعدم تعارضها مع الكشوف المعرفية الحديثة.

وكانت النتيجة أن تسعة من كل عشرة من هذه المفردات الواردة في التوراة تسقط بإحالتها على الكشوف المعرفية المعاصرة ، ولا يمر سوى العشر ، وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل ، أما في القرآن فانها تمرّ جميعاً ، عشرة من عشرة !!

ويخلص الرجل إلى القول بأن ذلك لا يمكن أن يكون من صنع إنسان ، وأن القرآن الكريم لا بدّ وأن يكون مصدره خارج حدود القدرة البشرية ، وبكل تأكيد ...

إذ كيف تسنى لمحمد (صلى الله عليه وسلم) أن يزيح من أخطاء التوراة والإنجيل تسعة أعشارها ولا يتقبل سوى العشر الصحيح في ضوء خبرة معرفية لم يقدر لها أن تتشكل وتتضح إلاّ بعد مرور أربعة عشر قرناً؟!!

ويعلن الرجل إسلامه ... واحدا من عشرات ومئات وألوف ممن ساقتهم معجزة القرآن إلى التسليم بهذا الدين ...

وأنت بعدُ في الدنيا !؟

الصحابي الجليل والشاعر المعروف عبد الله بن رواحة ، يتسلم القيادة في معركة مؤتة (هـ٨) بعد استشهاد رفيقيه جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة (رضي الله عنهما) ... يقاتل الروم ببطولة نادرة حتى يجف ريقه ... يتقدم إليه أحد إخوانه المقاتلين فيعطيه بضع تمرات تعينه على مواصلة القتال ... " خذ ... شد بها صلبك فانك لقيت في يومك هذا ما لقيت " ... يقول له ... يضع إحداها في فمه محاولاً مضغها فتستعصي على الانزلاق في ريقه المتيسبب ... ينظر فيرى أخويه ممزقين في ساحة المعركة ، وقد سبقاه إلى هناك ، فيلفظ التمرة ويخاطب نفسه مندهشاً : وأنت بعد في الدنيا ؟ ثم ما يلبث أن يواصل القتال حتى تمزقه سيوف الروم ...

يا الله ... كم هي تافهة ، منحسرة ، متضائلة ، هذه الحياة الدنيا في أعين المعلمين الكبار من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) !؟ لقد استكثر ابن رواحة على نفسه ساعات ، بل دقائق من الحياة فأعلن رفضه إياها ببطولة نادرة ، واستأنف القتال ملتحمًا بالأعداء من أجل أن ينال الشهادة ويلحق برفيقيه ...

ذلك أن الحياة والموت كانتا عند أولئك الكبار حالة واحدة ذات وجهين فأما أولهما فحلم من الأحلام العابرة ، وأما ثانيهما فهو الحقيقة الصلبة الخالدة التي كتب لها الدوام .. وأن الانتقال من حال إلى حال لا يعدو أن يكون نقلة لا تكاد ترى ، ولا تستحق كل هذا الهم والحزن والخوف الذي ينتاب معظم الناس وهم يفكرون في الموت أو يقتربون منه ...

وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد حذرنا من الحرص على الحياة .. الحرص الذي يتجاوز حده المعقول ، ويرغم الإنسان على أن يتشبث بالدنيا ... أن يصير عبداً لها ، وأن يخضع لإغوائها الذي يضع الإنسان في دائرة الأسر الذي يفقده الاتصال بالعالم ، ورؤيته على حقيقته ...

بل ان بعض الناس يبلغ بهم الأمر أن يتصوروا أنهم خلقوا لكي لا يموتوا ... لا يدخل دائرة قناعاتهم وسط لهائهم المحموم وراء اغراءات الحياة الدنيا وصخبها ، أن النهاية قريبة ، وأن الموت يقف لهم بالمرصاد ... على بعد خطوات ...

ومن ثم ، في غمرة هذا الضباب الذي وضعوا أنفسهم فيه ، تهتز لديهم الموازين ، وتتميع القيم ، وتغيب الرؤية الصائبة لمهمة الإنسان في هذا العالم ...

وعندما يشيخون ، رغماً عنهم ، لا يكفون عن اللهات المحموم وراء الجاه والمال ، متذرعين بأن عليهم أن يهيئوا لذريتهم مستقبلاً محوطاً بالضمانات ، وما هو في حقيقته سوى

الوجه الآخر لتشبثهم بالحياة ، وحرصهم عليها ، ورغبتهم في الاستمرار بمواجهة تحديات الموت والفناء .

أعرف رجلاً من أثرياء مدينتي كان يدلف إلى الثمانين ... وكان يهرع يوماً بيوم إلى عمارة كبيرة كان يشرف على بنائها في شارع كبير من شوارع المدينة الرئيسية ... فلما اكتملت العمارة ، لم يجد بأساً في أن يؤجر أحد محلاتها لحانة تباع الخمر وتقبل المدمنين ...
ومن عجب أن الرجل كان يصلي ويصوم ويقراً القرآن ... لعله كان يبزر لنفسه ضرورة توفير الضمانات لذريته من بعده ... نوع من خداع الذات والتحايل على الموت ...
ومن عجب - كذلك - أن معظم الذين يكدحون من أجل إيجاد الضمانات لأبنائهم ، يجيء هؤلاء الأبناء فلا يقدرّون جهد الآباء حق قدره ويبعثرون الثروات التي جاءتهم دونما عناء ...

إنها أقبح صفقة يمكن أن يمارسها الإنسان ... أن يبيع آخرته بدنيا غيره ...
وثمة فرق كبير بين هذا النمط الذي تعج به المدن في ديارنا الإسلامية ، وبين ابن راحة الذي استكثر على نفسه دقائق مضافة من الحياة !

أيمكن أن يكون هذا هو أحد أسباب انكسارنا في الزمن الرمادي الذي نعيشه ؟
نعم ... وبكل تأكيد ، إذا تذكرنا رؤية الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، المترعة بالشفافية والتي طالما دفعته إلى تحذير أمته من مأساة الالتصاق الزائد بالحياة الدنيا : (ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتم) !!

الله سبحانه واللدائن الرخوة

هنالك خطأ كبير يمارسه الشكوكيون وأنصاف المؤمنين ... خطأ يدعو للرتاء والسخرية ، وهو جعل الدماغ البشري ، تلك اللدينة الهشة ذات الامكانيات المحدودة ، حاكماً على الوجود الإلهي والكوني ، قديراً على اختراق الظاهر إلى الباطن والوجود إلى الغيب ... وهي مهمة لم يرد للعقل البشري أن يتعامل معها ابتداءً ويكشف سرّها المنوط بالوحي القادم من السماء ... وحده.

إننا ندخل معادلة غير منطقية على الإطلاق عندما نحاول أن نحمل الدماغ البشري ما لا يطيق ، ونرغمه على الدخول في مجاهيل لا طاقة له البتة في اكتشاف سرّها المجهول. ولحكمة يريدنا الله سبحانه تنزّلت الأديان لكي تمنح الإنسان الجواب على جانب من الأسئلة التي تؤرقه في هذا المجال ... وتبقى جوانب أخرى في علم الله وغيبه الذي لن تستطيع عقول البشر جميعاً أن تجتازه إلى العمق ، بل أن تبلغ حافته : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا** ﴾ (سورة الجن ، الآيتان ٢٦ - ٢٧).

إننا نتوهم بعقولنا المهيّنة للتعامل مع العالم الصغير ، الكرة الأرضية التي لا تزيد عن أن تكون هباءة في مسرح الكون الكبير ... نتوهم أننا نملك القدرة والأدوات على حلّ ما يبدو معضلات كونية ، والاطلاع على بعدها الغيبي ، تماماً كما لو أن مجموعة من النمل اجتمعت لكي تعرف كيف استطاع المهندس البشري إقامة ناطحات السحاب بهذا الارتفاع الهائل دون أن تميل أو تسقط على الأرض ... أو يدرك سرّ نزول المطر بالغزارة التي تلحق الأذى بمجمعاتها السكنية.

إننا ونحن نمارس هذه اللعبة الصببانية المضللة ، نحاول أن نجتمع تقافة إلى برتقالتين ونقول بأن حاصل الجمع ثلاثة فيما هو مستحيل في المنطوق الحسابي. ولطالما طرح الشكوكيون وأنصاف المؤمنين على أنفسهم هذا السؤال : إذا كان الله سبحانه أزلماً فهل (يعقل) ألا تكون له بداية ؟ وإذا كان الكون بأجسامه وفضائه من خلق الله فاين هي حافته الأخيرة ؟

أسئلة تدعو للشفقة لأن الإجابة عنها بالقدرات العقلية المحدودة التي منحها الله للإنسان ، مستحيلة بكل معيار من المعايير.

لقد وضعنا الله (سبحانه وتعالى) في الموقع المناسب تماماً لمهمتنا البشرية في العالم ، وقال لنا في كتابه وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن علينا أن نتعامل مع فيزياء العالم ...

مع الكتلة، لكي نعرف أبعادها ونكتشف أسرارها ونوظفها لتنمية الحياة وترقيتها فيما يجعلها ملائمة للمهمة الكبرى لخلق الإنسان ألا وهي عبادة الله (سبحانه وتعالى) ... وحذرننا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أن نتجاوز مهمتنا هذه ، فنعتبر الفيزياء إلى ما وراءها ، إلى ما سماه الفلاسفة (الميتافيزيقا) فيما لا نملك معه أدوات العمل ، فقال : (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله).

فكأنه - بهذا - أعطانا خارطة العمل المرسومة بعناية لأداء مهمتنا الاستخلافية - الحضارية في هذا العالم.

ويوم أن أصغينا للنداء ، والتزمنا برنامج العمل ، عرفنا كيف نتحضر ، وكيف نكون سادة الدنيا ... ملكنا الأرض وكانت عيوننا معلقة بالسماء ... سلمنا بمعطيات الوحي ومضينا لكي نتعامل مع الوجود فنعيد صياغته بما يريده الله سبحانه ورسوله (صلى الله عليه وسلم).

وبمرور الوقت ، وبتأثير الفلسفة اليونانية واغوائها ، زاغت شرائح من الآباء والأجداد عن الطريق المرسوم ... وراحت تركض وراء ما يمكن اعتباره سرايا (الميتافيزيقا) ... على اعتبار أن فك طلاسمها أمر مستحيل ... فضيقت بذلك زمنا وجهداً كبيرين كان يمكن لو أحسن التعامل مع الدنيا بالمنطوق القرآني لا اليوناني ، أن نمضي قدما في سلم الإنجاز الحضاري ، وألا نسمح للغربيين الذين لا يعرفون الله (سبحانه وتعالى) أن يسبقونا ويمسكوا برقابنا.

ولا تزال خرائط العمل القرآنية والنبوية مفروشة بين أيدينا ، ولا نحتاج لكي يكون لنا مكان في العالم ، سوى أن نشمر عن ساعد الجدّ ، وأن نتعامل معها بأقصى درجات الصدق والفاعلية والذكاء .

حول معجزة الفتح

القوة الهائلة التي دفعت العرب المسلمين إلى فتح العالم وتحدي جغرافيته تنير الدهشة ... لكن هذه الدهشة سرعان ما تزول إذا عرفنا الدافع الكبير الذي كان يقف وراء هذه القوة ، ويشحنها ، ويمدّها بالوقود.

إنها العقيدة الانقلابية التي تتمحور عند شعار (لا إله إلا الله) ... هذا الشعار الذي يستأصل من نفس المؤمن ووجدانه وعقله كل صيغ التحكّم والقهر والتردد والخوف والاستلاب ، ويدفعه حراً طليقاً لا يصدّه شيء أو قوة في هذا العالم.

تحرير حتى الأعماق من ظلال الصنميات والطاغوتيات ... وإيمان مطلق بأن الله سبحانه وحده هو الذي يحكم هذا الكون ، ويتحكم بمصائرهم ومقدراته ، وأن الإنسان ما هو الا ستار لقدرة وأداة لمشيئته ، يفعل بها ما يشاء ، ويوجهها حسبما يشاء ، ويختم على مصيرها كما يشاء . وليس الموت أو الشهادة سوى حلقة ، أو نقلة ، أو لحظة عبور من حال إلى حال ، ومن مرحلة إلى مرحلة ، في خارطة طويلة ممتدة مرسومة في علم الله.

من هنا كان الاندفاع الكبير ، وبشعار (لا إله إلا الله) هذا الذي يملك القدرة على نقل الجبال من مواضعها ، كما يقول رجاء غارودي في (وعود الإسلام) ، تمكن الفاتحون من إزالة العروش ، والإطاحة بالأكاسرة والقياصرة ، وتغيير خرائط الدنيا ... في مدى زمني قياسي ... والعجيب أن الفاتحين العرب ما كانوا يعرفون سوى القتال البري الذي تمرّسوا على بعض أساليبه في الجاهلية والإسلام ... ولكن الذي حدث أنهم استجابوا لتحديات الجغرافيا ، وقاتلوا في الجبال والغابات والمستنقعات والبحار والأنهار ... وانتصروا ...

يبدو أن شعار (لا إله إلا الله) لم يدفعهم فقط إلى الموت والشهادة ، ويجعلهم يتسابقون إليهما ، ولكنه علمهم - أيضاً - كيف يتعاطون مع الحالات المختلفة في جبهات القتال ويتفوقون عليها ...

هذا هو السرّ الذي تنبض به العقائد والأديان ... إنها تدفع ... وتعلم ... وتمكّن من الاستجابة للتحديات ... في وقت واحد ... وبهذا تصنع الأعاجيب.

ولنتذكر - أيضاً - أن الرسول القائد (صلى الله عليه وسلم) برؤيته الاستراتيجية الثاقبة حاول أن ينبّه أصحابه وجنده إلى هذا ... إلى أنهم سيجدون أنفسهم مضطرين لممارسة صنوف من القتال قد تكون جديدة عليهم فراح يؤكد عليها ، ويدعوهم للتأهب لأهبتها وأخذ الاستعداد لها ...

ورغم أنه كان يمارس تدريبهم في المدينة ، في الأشهر الأولى للهجرة ، حيث لم تكن دولة الإسلام قد تجاوزت أطراف يثرب ، وحيث لم يكن الأمر يتطلب سوى خبرات القتال البري ، فإنه (صلى الله عليه وسلم) كان يحدث أصحابه ويحضرهم على فنون القتال البحري ويقول : (غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر ، والمائد فيه كالمتشحط في دمه ، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية جميعاً) .

يومذاك ... كانت البحار بعيدة ، ولكن بصيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، كما علمنا دائماً ، تتجاوز المرحلي العابر إلى الممتد البعيد ، وتخطط للمديات المتطاولة ... وكان يعرف جيداً أن أيام القتال البحري ستجئ ، وستجئ معها أنماط أخرى من القتال والتحديات ... فأراد أن يعد أصحابه لذلك ... ولقد كان أصحابه (رضي الله عنهم) عند حسن الظن ...

نيرفانا لبعض المسلمين

بعض المنتمين لهذا الدين بحاجة إلى نيرفانا هندية تزيل شحوم الورم والإحساس السرطاني بالذات ...

رياضة نفسية قاسية ومتواصلة ، من أجل التخفّف وإلغاء (الأنا) التي يعرف شياطين الجن والإنس كيف يتسلّلون منها إلى المؤمنين !
ولقد كان أحد أسباب التصوّف الإسلامي هو إعلان الحرب على (الأنا) وتضييق الخناق عليها ، والتجرّد لمحبة الله سبحانه وطاعته ... ومع ذلك كنا نجد العديد من المتصوفة لا يكفون من الحديث عن أنفسهم ... وإنجازاتهم بإعجاب مبالغ فيه يثير القرف والاشمئزاز في نفوس سامعيهم.

وأعرف عدداً من دعاة الإسلام لا يكفون - هم الآخرون - من الحديث عن أنفسهم وإنجازاتهم ، وكأنهم يحرقون أوراقهم بأيديهم فلا يدخرون شيئاً خالصاً لله ...
ولقد أخذت هذه الحالات (النرسيسية) - إذا صحّت التسمية - تزداد انتشاراً بمرور الأيام ، وأصبح الإنسان يلتقي - عبر المجالس - أناساً همّهم الأكبر هو أن يستأثروا بالحديث ، أو أن يدور الحديث حول ذواتهم ... ورغم أن الآخرين يصغون إليهم بانتباه - بحكم مطالب التأدّب في المجالس - فأنني على يقين من أن القرف يملأ نفوسهم وحلوقهم وهم يتخلقون حول هذا النمط من الأدعياء.

لا أدري كيف يبيح المسلم لنفسه أن يتحدث عن نفسه إلاّ إذا سئل بطبيعة الحال ...
ألا يعلم أن كيل المديح للذات يجلب غضب الله ورسوله ، ولعنة الناس أجمعين ؟
إنها صفقة خاسرة على أي وجه من وجوهها ... وإنها لخسارة مزدوجة بمعايير الآخرة والدنيا ... أما الأولى فأمرها معروف ... وأما الثانية فلأن الذين يمارسون اللعبة يكسبون كراهية الآخرين ... وحقدهم ... والنفور منهم ... بدلاً من الإعجاب والتقدير اللذين كان في ظنهم أنهم سيحصلون عليهما.

ثمة حديث نبوي صريح وحاسم يحذّر من هذا المنزلق الخطير ويعد أصحابه بمصير تقشعر له الجلود ... قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال جريء ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. فقال : كذبت ، ولكنك

تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ...) إلى آخر الحديث الشريف.

وكان المفروض بالنسبة لبعض الكتاب والدعاة الإسلاميين في الأقل ، أن يتعلموا منه ... أن يعودوا إلى أنفسهم فيرغموها إرغاماً على الكف عن هذا التغني المرضي بالذات ...

دع الآخرين يتحدثون عنك وعن إنجازاتك ولا تتحدث أنت عنها ... هكذا كنت أقول دائماً لعدد من المعارف والأصدقاء ، من أولئك الذين آثروا الدخول في اللعبة ، واعتقلوا أنفسهم في زنزانة (النرسیسية) : الأنا ...

كثيرون منهم لم يأبهوا للنصح ، وواصلوا حياتهم وفق التقاليد نفسها ... يبدو أنها - بالنسبة إليهم - حالة مرضية يصعب التحرر منها ...

والوقاية خير من العلاج ... هكذا أرادها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولكن ما دام الفأس قد وقع في الرأس ، كما يقول المثل ، فلا بد من العلاج ...

والعلاج هو (النيرفانا) التي تعرف كيف تزيل شحوم (الأنا) من النفس ، وتضيّق الخناق على ورمها السرطاني الجائع !!

تعالوا نحسب

تعالوا نحسب ما تبقى من عمر كل واحد منا نحن الذين تجاوزنا الستين ، عشرون سنة على الأكثر ... أليس كذلك ؟

حسناً ... لنطرح منها عشر سنوات من النوم ، ونضيف إليها خمس سنوات أخرى مع الأمراض والأسقام التي تمنع الإنسان من أن يحيا حياة طيبة ولو في حدودها الدنيا ، فضلاً عن أنها تعيقه عن العمل والنشاط ، فما الذي يتبقى ؟ خمس سنوات فقط ... أليس كذلك ؟

فهل تستحق هذه السنوات الخمس كل هذا الهم ، والقلق ، والحزن ، واللاهات ، والحرص ، والجبن ، والمذلة ... إلى آخر ما هنالك من منغصات تجعل الحياة مرة كالعلقم ؟

خمس سنوات فحسب ، ألا يدفع مداها الزمني القصير جداً ، الإنسان إلى أن يراجع نفسه ، ويعيد النظر في حساباته ، فيغيّر معادلات هذه الحياة وأرقامها بما يتلاءم مع هذا المدى الزمني المحدود ؟

أن يكف عن اللهاث ... والقلق ... أن يتخفف من الهموم والأحزان ... أن يتمرد على دائرة الجبن والمذلة ... وأن يرتفع فوق هذا كله ، حراً ، متوحداً ، آمناً ، مطمئناً وسعيداً.

كما منا فعل ذلك ، وحسبها قبل ألا يقدر على الحساب ؟

لا أحد !!

لأن الحياة الدنيا تملك سحراً عجبياً ... نوعاً أسطورياً من المغناطيسية التي تشدّ الإنسان إلى الأرض ، وتسمّر قدميه وعقله وروحه ووجدانه فيها ... حتى ليخيل للكثيرين أحياناً أنهم خلقوا لكي لا يموتوا.

والآن ... دعنا من الذين تجاوزوا الستين ، ولم يتبق لهم من الحياة (الحقيقية) سوى خمس سنوات فحسب ، ولنتراجع في سلم الأعمار إلى من هم في الثلاثين أو الأربعين ... كم تبقى لهم وفق الحساب المذكور ؟ عشر سنوات في الكثير ! ألا يتحتم أن يدفعهم ذلك ، هم الآخرون ، إلى التحرر من كل صنوف التعاسة والشقاء والهموم والأحزان والقلق واللاهات ، التي تجعل حياة الإنسان ، حتى وهو في عزّ شبابه ، لا تستحق أن تعاش ؟ وحتى لا يتهم هذا المنظور الذي يبدو للبعض متشائماً ، بالسلبية ، فإن الحساب المذكور ينطوي بالضرورة على بعده الإيجابي ... إنه يجيء - لمن يملكون الحكمة - حافزاً على المزيد من العمل والإنجاز ... المزيد من الذكر والعبادة ... المزيد من تنمية الرصيد الدنيوي ، لكي يخدمهم هناك يوم الحساب ... إذ ما دامت الفرصة المتبقية محدودة ... محدودة جداً ... فإن الذكي الذي هو من يعرف كيف يوظفها لمصلحته ... ومصيره ...

من أجل ذلك نادانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وحذّرنا في الوقت نفسه من ألاّ نحسن توظيف الزمن المحدود المتاح لنا فقال (اغتتم خمساً قبل خمس ، شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك) ، وأن الله (سبحانه وتعالى) سائل ابن آدم يوم القيامة عن خمس : (عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وماله من أين اكتسبه ؟ وفيما أنفقه ؟ وماذا عمل فيما علم ؟) .

ومن أجل ذلك نبهنا القرآن الكريم مرارا وتكرارا إلى تفاهة الحياة الدنيا ، وقصرها وانصرامها ، فقال ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (سورة الحج ، الآية ٤٧) ووصف لنا هذه الحياة كما لو كانت مجرد حفل تعارف ينفصّ سامروه بعد ساعة أو ساعتين : ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ .. ﴾ (سورة يونس ، الآية ٤٥) ، ونقل لنا جانباً من حوار الإنسان مع الإنسان يوم الحساب : ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لِّبِئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ (سورة طه ، الآية ١٠٤) ، ﴿ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ ﴾ (سورة المؤمنون ، الآية ١١٣) .

ألا يدفعا ذلك - مرة أخرى - إلى أن نعيد النظر في حساباتنا ، وألاّ نجعل الدنيا أكبر همنا ، ومبلغ علمنا ، كما كان يدعو الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) ؟

أدوار ثلاثة

هناك أدوار ، أو طبقات ثلاث ، لتأكيد الإيمان والتعبير عن مطالبه ومقتضياته : طبقة القناعات العقلية ، وطبقة القناعات القلبية والوجدانية ، وطبقة التنفيذ العملي السلوكي للقناعات الإيمانية في واقع الحياة اليومية ، ومن ثم التحقق بالتوحد بين العقل والقلب والسلوك.

ومشكلتنا في كثير من الأحيان أننا نملك القناعات العقلية ، بل انها ربما تضخمت أكثر مما يجب على حساب الطبقتين الثانية والثالثة .. وأحياناً أخرى تطفئ القناعات القلبية على حساب العقل ، وفي الحالتين لا نكاد نلاحظ انعكاساً صادقاً وأميناً على الواقع العملي والسلوك ، الأمر الذي يمثل جوهر مأساة العديد من المسلمين في العصر الحديث.

ورغم أن الدين المعاملة ، كما يحدثنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ورغم أن المسلم الحق ، كما يؤكد الرسول أيضاً ، يتميز بالسماحة إذا باع وإذا اشترى ، فاننا نجد الكثير من الناس يشتكون من سوء معاملة اخوانهم من الذين لا تقوتهم صلاة. حتى لقد أصبح هذا أشبه بالوصمة التي يوصم بها بعض البائعين من المسلمين الملتزمين ... بل ان بعض المتشككين والكسالى يذهب إلى حدّ القول : علام أصليّ إذا كان بعض المصلين أنفسهم لا تأخذهم بالذين يتعاملون معهم رحمة أو شفقة !؟

أي التزام هذا والخندق عميق بين قناعات الإيمان العقلية والقلبية ، وبين واقع السلوك اليومي في التعامل بين الناس ؟

إنها مفارقة محزنة والحق يقال ، وإذا أردنا أن تكون حياتنا إسلامية حقاً ، إذا أردنا ألا نغضب الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ونحن نجتاز رحلتنا اليومية عبر الحياة ، ويلتقي بعضنا بعضاً ، ويتعامل بعضنا مع البعض الآخر ، فان أول خطوة يتحتم علينا أن نخطوها ، هي ردم الخندق ، وتدارك الفجوة ، وإعادة التوحد بين العقل والقلب والسلوك.

ولعل هذه بالذات هي أحد أهم عوامل انكسارنا الحضاري ، ولعلها السبب الأكثر أهمية في تحوّل أمتنا إلى قصعة يتداعى عليها الجائعون من كل مكان ، كما سبق وأن أنبأ به رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

إن الإيمان - بداهة - ليس مجرد قناعة يقبلها العقل ويسلم بها ، كما أنها ليست مجرد يقين أو تسليم قلبي بمفردات الإيمان ... إنها ، إلى جانب هذا وذاك ، جهد موصول ، أو جهاد كبير ، بتعبير الرسول (صلى الله عليه وسلم) لملاحقة كل ما من شأنه أن يصدّ هذه القناعات عن التحقق في واقع الحياة السلوكية للمسلم ، ويحفر خندقاً بين العقل والقلب والممارسة !

ولطالما حدثنا القرآن الكريم عن أن الله (سبحانه وتعالى) ﴿ ... لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (سورة الأنفال ، الآية ٥٣) ، وأنه (سبحانه وتعالى) ﴿ ... لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (سورة الرعد ، الآية ١١) هذا التغيير المكافح الذي يسعى جاهدا للحفاظ على التوحد والالتحام بين العقل والقلب والسلوك. إن المسلم الجاد مشروع يومي مفتوح للتسامي والصعود ... وإن ثمة محطات أربع تنتظره ، وتتطلب منه أن يشحذ همته لاجتيازها جميعا في رحلة العمر : الإسلام ... الإيمان ... التقوى ... وصولاً إلى المحطة القمة : الإحسان الذي يضعه قبالة الحضور الإلهي المؤثر ، ويدفعه إلى الإبداع والإتقان في كل ما يمارسه من أعمال ... ولن يتحقق ذلك إلا بأن تكون نقطة الانطلاق متمركزة عند الحالة التي يتوحد فيها المسلم عقلا وقلبا وسلوكا ... وإلا فإن ألف سنة من الجهد اليومي لن تقربه خطوة واحدة من المطلوب ، ولن تمكنه من اجتياز المحطات الأربع التي تنتظره عبر رحلة الحياة ...

من ثمار كتاب الله ...

ظاهرة الارتباط الوثيق بين المكتبة كمؤسسة وبين الحضارة ، تكاد تكون بديهية من البديهيات التي لا يماري فيها أحد ، بل ان المكتبة تعد واحدا من المؤشرات على درجة التطور الحضاري لأمة ما من الأمم أو شعب من الشعوب.

وبمجرد متابعة عدد المكتبات في كل دولة ، وما تتضمنه من مؤلفات ، وحجم الخدمات التي تقدمها ، وعدد الباحثين والمطالعين والطلبة الذين يترددون عليها ، يمكن للمرء أن يحكم على المرحلة التي بلغتتها تلك الدولة في سلم الحضارة.

ذلك أن المكتبة تضم جناحها على حصيلة الإنجازات الفكرية والثقافية لأي شعب ، وليس ثمة مؤسسة أخرى كالمكتبة يمكن ان تلخص طبيعة المسار الفكري والثقافي للأمم والشعوب ، هذا إلى أن اتساع نطاق المتعاملين مع المكتبة أو انخفاضه ، يمكن ان يوجز لنا - هو الآخر - المدى الذي بلغته هذه الأمة أو تلك.

ونحن لو التفتنا إلى عصور الازدهار والتألق الحضاري الذي بهرنا به العالم يومها ، لوجدنا كيف كان (الكتاب) وكانت (المكتبة) بالتالي واحدة من أهم مراكز الثقل ، وعوامل الدفع والإنجاز في مسيرة تلك الحضارة. ويكفي أن نقرأ بعض شهادات الباحثين الغربيين لكي يتأكد لنا ذلك.

يقول المؤرخ الفرنسي المعاصر (أدوار بروي) في كتاب (تاريخ الحضارات العام : ... " لقد بلغ من غنى التأليف في العالم الإسلامي ما يجعل الناس يشعرون بحاجة ماسة لمن ينهض ويعرف به في فهارس علمية. وقامت في حواضر البلاد الإسلامية الكبرى دور للكتب غصت بعشرات الألوف من الكتب ، جرى تصنيفها على نظم فنية خاصة روعي فيها تصنيف العلوم على أبواب ومطالب ، وقام على خدمتها جيش من النساخ والوراقين ... كل هذا كان يفترض عددا كبيرا من القراء والمطالعين وطائفة كبيرة من الكتاب وحملة الأقلام والمفكرين "

ويقول الباحث الفرنسي المعاصر الدكتور (موريس بوكاي) في كتابه (دراسة الكتب المقدسة) : " لقد أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والمكتشفات بالجامعات الإسلامية. في ذلك العصر كان الباحث بهذه الجامعات يجد وسائل ثقافية عظيمة. ففي قرطبة كانت مكتبة الخليفة تحتوي على أربعمئة ألف مجلد ... وكان الكثيرون يسافرون من مختلف بلاد أوروبا للدراسة فيها "

ويقول المستشرق المعروف (فرانس روزنتال) في كتابه (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي) : " كانت المكتبة الخاصة بالنسبة للعالم المسلم ، أعز ما يملكه ، وكان فقدها كارثة تترك في نفسه ألماً أشد من الألم الذي يشعر به عالم اليوم إذا ما فقد كتبه ."
وهناك غير هذه وتلك عشرات الشهادات ومئاتها على ما كان للكتاب والمكتبة من دور فعال في تاريخنا الحضاري .

أليست هذه الحضارة المتألقة ، وتلك التقاليد المعرفية الأصيلة ، هي ابنة كتاب الله الذي تنزلت كلماته الأولى تأمر الانسان بالقراءة ، وتمجد العلم والقلم ؟ ﴿ اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (سورة العلق ، الآيات ١ - ٥) ...

أليست هي ابنة كتاب الله الذي دعا إلى العلم في مئات الآيات ، وحثَّ المسلم على إعمال قدراته الحسية والعقلية لاكتشاف العالم ، وما ينطوي عليه من سنن ونواميس وكنوز وطاقات ؟

أليست هي ابنة هذا الدين الذي أعلن رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) بأن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم الشهداء ؟

فرصة للخدم والعبيد

ليس ثمة كالحضارة الإسلامية منحاً للفرص المفتوحة للخدم والمستضعفين والعبيد ... لقد شكل هؤلاء دولاً في تاريخ هذه الحضارة ، حكمت القرون الطوال ... ولم يقل أحد من أبناء الأمة وقادتها على السواء أن هذا لا يجوز !

ودائماً كان بمقدور الحلقات الدنيا أن تتحرك ، وأن تصعد إلى الأعلى ، وأن تبلغ القمة ، ليس في مجال الحكم فحسب ، بل في مجال المال والإدارة والمجتمع والنشاط العلمي والثقافي ، وسائر مناحي الحياة.

إذا كانت البداية أن يصبح بلال الحبشي الأسود سيداً للمسلمين ، وأن يتم اختياره من بين سائر الصحابة والأنبأ لكي يرفع أول نداء للصلاة على سطح الكعبة بعد تحريرها ، ونعلاه يخفقان فوق رؤوس السادة والكبار من طلقاء مكة ... وإذا كانت البداية أن يقول الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مخاطباً أبناء أمته : " اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد أسود كأن رأسه زبيبة " ...

وكل ما سيتحقق بعد ذلك ... كل ما سيشهده مجرى التاريخ الإسلامي عبر تدفقه الصاخب من صعود الفقراء والكادحين والعبيد والمستضعفين إلى أعلى السلم ... انما هو حالة طبيعية ... حالة طبيعية تماماً ، في ساحة حضارة فتحت صدرها للجميع ، حتى أولئك الذين لم ينتموا للإسلام ، وفي ضوء تعاليم دين لم يفرق مطلقاً بين الأسود والأبيض ، والسادة والعبيد ، والأغنياء والفقراء ...

ولا يزال اسم (بلال) ينساب على ألسنة المسلمين مسبقاً بكلمة (سيدنا) ، الا يحمل هذا دلالاته الحاسمة فيما نحن بصدده ؟ وعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما يقول : " أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا " يحكم على بلال بأن يصير سيداً للمسلمين كافة بما فيهم اتباع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الصحابة الكبار .

والمماليك الذين كانوا يباعون ويشترون في الأسواق ، أقاموا في مصر والشام والحجاز دولتين كبيرتين أسهمتاً بشكل واسع ، ليس في مصائر عالم الإسلام فحسب ، بل في إبداعه الحضاري ... والكثيرون من علماء الأمة وقادة الفكر فيها قدموا من طبقة الموالى والعبيد وساهموا بكفاءاتهم المتميزة في بناء صرحها الحضاري ، فيما هو معروف للقاصي والداني .

والأمثلة كثيرة ، كثيرة جداً ، وليس بمقدور أحد من الباحثين أن يجد عشر معشارها في أي دين أو مذهب أو نظام في العالم على امتداده .

في الهند - على سبيل المثال - كان المنبوذ يظل منبوذاً مهما حاول ، ومهما امتلك من طاقات وقدرات ، أو قدم من عمل ... الأبواب موصدة أمام هذه الطبقة السفلى في المجتمع ، رغم كونها تعد بالملايين ...

وفي روما كان كل غير الرومانيين محسوبين على طبقة الخدم والعبيد والأجراء ... هذان شاهدان - فحسب - من عمق زمني بعيد ... أما في العصر الحديث فيكفي أن نلقي نظرة على ما كان يجري في الولايات المتحدة الأمريكية حتى عهد قريب وأن نقرأ كتاباً ك (جذور) للكاتب الأمريكي الزنجي (الكس هيلي) لكي نرى بأم أعيننا ما فعله البيض بالسود هناك مما تقشعر لهوله الأبدان.

والى زمن ليس ببعيد لم يكن بمقدور الزنجي في أمريكا أن يأكل في مطاعم البيض أو ينزل في فنادقهم ... بل ان المفارقة التي تدعو للسخرية أن هذه التفرقة نقلت عداواها هناك حتى إلى الشيوخ الأمريكيين الذين كان أبيضهم يرفض أن يبيت أو يأكل في مكان واحد مع السود. بل ان الدستور الأمريكي لا يزال يقف في وجه كل أسود يطمح لأن يرشح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة ...

والقرآن الكريم قالها بوضوح وحسم منذ اللحظات الأولى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة الحجرات ، الآية ١٣). وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالوضوح والحسم نفسه : (لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى والعمل الصالح) ... (أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب) .

ومن هذا المنطلق الذي يقف فيه الإنسان إلى جانب الإنسان على قدم المساواة ، بغض النظر عن لونه وعرقه وجنسه وطبقته ، وما يملكه من مال ، بل حتى عن دينه وعقيدته ... من هذا المنطلق تدفقت تقاليد حضارة فريدة منحت فرصها للجميع ...

الحياة ... والتعاليم

في رواية (سدهارتا) للروائي الألماني المعروف (هيرمان هيسه) ايغال في الخبرات الدينية والروحية في الساحة الهندية ، ووقفة طويلة عند البوذية ... وملتقي بطل الرواية وهو ينتقد ذلك الانفصال المحزن بين التعاليم وبين التجربة الحية ... التجربة المعيشة في واقع السلوك اليومي دقيقة بدقيقة ، ولحظة بلحظة. وهو من أجل ذلك ينهي انتماءه للبوذية باعتبارها سبيلاً للخلاص ، ويتحول للبحث عن خبرة روحية أكثر إقناعاً ... خبرة تتناغم فيها التعاليم مع التجربة ... مع الحياة ...

وننتذكر كيف أنه في الإسلام استطاع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الكرام (رضي الله عنهم) التحقق بأقصى درجات الوفاق بين التعليم والتجربة ... بين الذات والسلوك ... بين إعادة صياغة الحياة بالحياة وبين صياغتها بالتعاليم ، انها أعلى صيغ الحكمة على الاطلاق : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (سورة البقرة ، الآية ٢٦٩).

حتى أسلوب تنزّل القرآن الكريم سورا ومقاطع وآيات ، على فترات ومراحل ، كان أحد أغراضه الأساسية ، هو أن يتشرب المسلمون التعاليم القرآنية يوماً بيوم ودقيقة بدقيقة ... أن توغل في مكوناتهم الذاتية ، وأن تصبح جزءاً من سلوكهم ، وأن تتعاشق مع الحياة بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ (سورة الإسراء ، الآية ١٠٦).

وهذه القراءة (على مكث) هي التي جعلت كل واحد منهم في نهاية الأمر " قرآناً يمشي على الأرض " .

ليس ثمة ازدواجية على الاطلاق بين التعليم والتجربة ... بل إن ممارسة كهذه كان أصحابها يدانون ، بل قد تصل بهم في أقصى درجات حدتها إلى (النفاق) !

ونحن نقرأ - على سبيل المثال - ومن بين حشود من الآيات ، هذا الوعيد القرآني لأولئك الذين انفصلت عندهم التجربة عن التعاليم ، واكتفوا بالأخيرة ، دون أن يبذلوا أي جهد لتحويلها إلى ممارسة ... إلى سلوك مشهود : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (سورة الصف ، الآيتان ٢ - ٣).

(كبر مقْتاً) ... وهل ثمة أكثر تنديداً ووعيدا من المقت الكبير الذي يحيق بهؤلاء؟! ونحن نتابع - على سبيل المثال كذلك - ومن بين حشود من الأحاديث النبوية هذا التحذير : (من لم تنتهه صلاته وصيامه عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً).

إنها الدعوة الملحة - إذن - للتحقق بالوفاق المرتجى بين القطبين : التعليم والتجربة ، وبدون ذلك لن يكون المسلم مسلماً بحق ، وبأي معيار من المعايير .

هذا الوفاق الذي لا يتحقق عرضاً ، ودونما بذل جهد حقيقي ... ابدأ ... إنما هو ثمرة كفاح موصول مع (الأنا) ومع (الخارج) ... كفاح ذو اتجاهين أحدهما عمقي يوغل في الداخل لملاحقة كل قوى الشد ، وعناصر الانفصال في الذات الإنسانية ، والآخر يمضي إلى الخارج لتذليل العوائق والصعاب ، ومجابهة الضغوط والتحديات ، وتعبيد الطريق للخبرة الإسلامية كي تصبح أمراً واقعا وسلوكاً منظورا .

ولشدة ما تنطوي عليه المحاولة من معاناة باهظة سماها الرسول (صلى الله عليه وسلم): (الجهاد الأكبر) ، ودعا اتباعه إلى تمحيض أنفسهم لمطالبه وضروراته. بل إنه وضع لهم سلماً ترتقي درجاته صوب القمة ، ويجتاز قطاره محطات الإسلام ، والإيمان ، والتقوى ، والإحسان ... ها هنا حيث يكون التطابق الباهر والكامل بين التجربة والتعاليم ، وحيث يقف المسلم قبالة الحضور الإلهي ، متجرداً للحق في أقصى درجات عطائه وتألقه ، معتقداً أن الله (سبحانه وتعالى) يراه في كل خلجاته وسكناته ، فيسعى لأن يمتثل لأمره (سبحانه وتعالى)

...

ها هنا - فعلاً - تتحول كلمات الله إلى سلوك منظور ... إلى خبرة حيّة معيشة ، تخترق العظم واللحم والأعصاب ، وتتمركز في العقل والروح ... ها هنا - فعلاً - يصير المسلم " قرآناً يمشي على الأرض " .

ويطل الإنسان من هذه القمة السامقة إلى كل المذاهب والأديان الأخرى فيرى الفارق كبيراً كبيراً بين دين يعيشه الإنسان من الداخل ، ومذاهب وأديان تتفصل فيها الحياة عن التعاليم .

الوجهان معاً ...

يلحظ المرء كيف أنه ما من صغيرة أو كبيرة في هذا الدين إلا وهي تحمل الوجهين معاً : البعيد والقريب ... المغيب والمنظور ... العقدي والمنفعي ... الأخلاقي والمصلحي ... الجمالي والضروري ... وقس على ذلك سائر الثنائيات المتقابلة الأخرى على امتداد الحياة والخبرة البشرية ..

خذ مثلاً تحريم الإسلام للغيبة ... إنه موقف أخلاقي ... هذه مسألة معروفة ... ولكن إذا ما حاولنا تفحص الجانب الآخر وقعنا على المنفعة ... فكثيراً ما يحدث وأن تمارس الغيبة ضد هذا الشخص أو ذاك ، وكثيراً ما يتسرب إليه ما قيل عنه ، وقد يفاجئ الآخرين بالحضور ... فإذا بالعلاقات تتأزم ، والشائج تنقطع ، والمصالح المتبادلة يصيبها التعثر والأذى .
وقس على ذلك مفردات من مثل التجسس ، واستراق النظر إلى الجيران ، والرياء ، وسائر الممارسات اللا أخلاقية ، والتي تقود بالضرورة إلى وجهها المنفعي ، فتلحق الأذى بالطرفين معاً ...

فإذا ما وسعنا المنظور أدركنا كم ينطوي عليه هذا الدين من حكمة وهو يحذر ويكره وينهى ويحرم شبكة من الممارسات التي تنطوي على البعدين معاً ، من أجل إقامة حياة سعيدة هائلة آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان .

لنضرب مثلاً آخر على تحريم الإسلام للتبرج ... لتزيّن المرأة وتعطرها للأجانب وهي تجتاز النوادي والأسواق والطرقات ... إن ذلك سينعكس وبكل تأكيد إثارة للفتنة ونشراً للفساد ، وإشاعة للتمتع ، وإبعاداً عن الالتزام الديني ... بل إنه يمضي - على المستوى العملي - إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيدمر السوية النفسية للشباب الذين لا يجدون فرصتهم للزواج ، ويصيبهم بلعنة الإحساس الملهب بالكبت والحرمان .

من أجل ذلك ستعاقب المرأة التي يشم عطرها في الطرقات بأنها لن تشم رائحة الجنة على مسافة أربعين خريفاً ... أو كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

بل إن هذا الدين يوغل في تعامله مع الظواهر ، في خطوطها الخلفية ... في منابعها وبدآياتها الأولى ... لكي يوقفها ويستأصلها قبل أن تتسع وتتكاثر وتغدو تياراً يصعب التصدي له ... إنه يرفع شعار (الوقاية خير من العلاج) رغم أنه قد أعدّ العلاج ليكون جاهزاً في اللحظة المناسبة .

إننا - على سبيل المثال - نقرأ في كتاب الله : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ .. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. ﴾ (سورة النور ، الآيات ٣٠ - ٣١).

ونحن نعرف جميعاً أن النظرة المتعمدة من الرجل للمرأة ، ومن هذه للرجل قد تنزلق إلى ما هو أبعد ، كما هو معروف في واقع الحياة ، وقد تقود إلى ما لا تحمد عقباه ، فيما هو معروف كذلك ، وكلنا نتذكر قول الشاعر :

نظرة فابتسامه فسلام فكلام فموعد فلقاء ...

وحتى لو توقفت النظرة عند حدودها السلبية التي لا تعقبها خطوة باتجاه الفعل ، فإنها تلقي في نفس الناظر حزمة محرقة من التشهي والإحساس بالحرمان ، وتهيج قوى الكبت المدمرة في أعماق نفسه ...

والرجل الرجل ... والمرأة المرأة ... هما اللذان يقاومان ببطولة هذا الإغراء عند حافاته الأولى ... ولسوف يكون مردود ذلك بمستوى القدرة على الامتناع : توحداً وطمأنينة وتحصيئاً للخبرة الروحية والتعبدية من التضلل والازدواج. ولهذا حدثنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كيف أن المسلم الذي يغض بصره يجد في نفسه - بالمقابل - حلاوة الإيمان ...

وكثير من المسلمين في مراحل شبابهم جربوا الاثنتين معاً ... وفي الحالين عرفوا كيف أن " التحذير " لم يقف عند حدوده الأخلاقية أو الدينية الصرفة ، وإنما تجاوز ذلك إلى الجانب العملي الواقعي من الحياة ...

إنها هندسة الله (سبحانه وتعالى) ، المحكمة ، لمسيرة المسلمين في هذا العالم ، وشبكة (الترافيك لايت) المدهشة للعلاقات الاجتماعية ، والتي تحمي الحركة في اتجاهاتها كافة من الفوضى والتخبط والارتطام ...

التشييع والرؤية الأخرى للحياة الدنيا

تجربة التشييع إلى القبر ذات خصوصية مؤثرة لمن يعرف كيف يتجاوز المنظور إلى ما وراءه ... ولقوة الإحياءات والمرئيات التي تقدمها يدعو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اتباعه إلى المشاركة في تشييع الجنائز ، وزيارة القبور !
في تجربة التشييع عند القبر تبدو المدينة ... والعمران ... والأشياء ... والحياة الدنيا نفسها حلما عابرا ... شيئا مسطحا غير حقيقي ... لا عمق له ولا وجود ... شيئا سريع التبدل والتغير والزوال.

إننا عندما نشاهد حلما مهوَّشا ، لا تستقر فيه الأشياء والخبرات على حال ، ولا تتأكد عبره النسب والأبعاد ... ثم نستيقظ فنجد أنفسنا قبالة صلابة الأشياء والمرئيات وثباتها ، نكون قد انتقلنا من حالة مهوَّشة ، ضبابية ، كثنائية التكوين ، متحركة ، متميعة ، غير ثابتة ... إلى حالة صلبة ، ثابتة محددة الملامح والأبعاد ، مستقرة النسب والمساحات.
أفلا يمكن أن تكون الحياة الدنيا هي اللحم ، والموت هو اليقظة التي تنقلنا إلى الوضع الأكثر ثباتا ودواما بما لا يقبل قياسا ؟

ولطالما تساءل المرء ، وهو يقف على حافات القبور ، في المسافة الضيقة الفاصلة بين الحياة والموت ، بين الدنيا والآخرة ... أتستحق الدنيا بوضعها هذا ، بتهويشها ، وتغيرها السريع ، وزوالها المفاجئ ... هذا التكالب الذي يتجاوز كل حد ، والذي يسعى فيه الانسان إلى أن ينشب أظفاره فيها ، رغم أن يديه ستسحبان بقوة من الكتلة ، شاء أم أبى ، ورغم أنه سينفى منها ، بعد عشر سنوات أو عشرين ، وربما بعد ساعة أو ساعتين ، لكي يلقي وحيداً ، أعزلاً ، في حفرة ضيقة ، بعيدا عن المدينة والناس والحركة والحياة ، بعد أن يكون قد عاش مدة من الزمن لا تتجاوز نصف عمر السلاحف وعشر عمر التماسيح ؟

ولطالما تساءل كذلك : ماذا لو لم تكن هناك هذه النهاية لحياة كل انسان ؟ ماذا لو كتب له الخلود ؟ أو في الأقل ماذا لو امتدت به الحياة إلى الألف سنة أو الألفين ؟! ماذا سيحدث ؟ وكيف سيكون فراقها مرا كالعقم ، وكيف سيكون إنشباب الأظفار ليس في الكتل والأشياء فحسب، بل في لحوم وأرواح بعضنا بعضا ... وكيف ستغدو الحياة البشرية على امتدادها في الزمن شيئا قاسياً صعباً مستحيلاً لا يستحق أن يعاش ، ولا أن يتمناه إنسان ...

ثم كيف كان الطاغوت سيتصرف في تعامله مع السلطة والناس والحياة ، إذا كانت فترة الثلاثين سنة والأربعين تدفعه دفعا إلى أبشع صيغ الأنانية والاستلاب والاستئثار وإلغاء الآخر ... والطغيان ؟ فكيف لو كانت فرصته ممتدة على مساحة ألف سنة أو ألفين ؟

إنها حكمة الله (سبحانه وتعالى) ، وموازينه العادلة الدقيقة ، تلك التي حددت فرصة الحياة الدنيا بستين أو سبعين عاما في أفضل الأحوال ... أليس سبحانه هو القائل في محكم كتابه : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (سورة القمر ، الآية ٤٩). وهو (جلّ في علاه) أدرى بخلقه ، ولهذا حدّد أعمارهم ، وكتب عليهم الموت ، وحصرهم في هذا المدى الزمني الضيق ... الضيق جدا ...

والأستحالت الحياة الدنيا غابة تعدو فيها الضواري البشرية ويمزق بعضها أجساد البعض الآخر بالمخالب والأنياب ...

حياة لا تستحق أن تعاش على الإطلاق ...

ما الذي حدث ؟

يتألم الإنسان كثيرا وهو يرى بعض التقاليد ومفردات السلوك اليومي الإسلامية متجذرة في ديار الغرب ، بينما تكاد تتلاشى وتغيب في ديارنا ؟

ليس بالضرورة لأن الغربيين تعلموها من قاموسنا الإسلامي ، وانما هي عندهم وليدة تنامي الخبرة الاجتماعية التي تتحرك (أحيانا) على خط صاعد ، وتصل بالجماعات والشعوب إلى اكتشاف (الحالات) و(الممارسات) السلوكية الأفضل والأحسن والأكثر ملاءمة لإنسانية الإنسان وحياته الاجتماعية.

في لندن ... في باريس ... في برلين ... في مدريد ... في كل عواصمهم ومدنهم وقراهم ، تكاد ترى وأنت تتعامل معهم البسمة نفسها وهي تغمر الوجوه ، والكلمة الطيبة ذاتها معلقة على الشفاه ، والرغبة العفوية غير المصطنعة في إمطة الأذى عن طريق الناس ...

أليس رسولنا (عليه أفضل الصلاة والسلام) من علمنا أن (الكلمة الطيبة صدقة) ، وأن تبسمنا في وجوه الآخرين صدقة ؟ أليس هو الذي طلب منا ، بل أمرنا ، أن نميط الأذى عن طريق الناس ، ماديا كان هذا الأذى أم معنويا ؟

والقرآن الكريم ، ألم يأمرنا أن نردّ التحية بأحسن منها ، أو أن نعيدها كما وجهت إلينا على أقل تقدير ؟

ما الذي يحدث في ديارنا ونحن نتعامل مع بعضنا في الدوائر والأسواق والأماكن العامة والمؤسسات ، فلا نكاد نتلقى كلمة طيبة ، أو بسمة حانية ، أو رغبة جادة في إمطة الأذى عن طريق بعضنا والبعض الآخر ... أيّا كان هذا الأذى ؟

وأين هو ردّ التحية بأحسن منها ، أو حتى ردّها كما هي ؟

تقول للموظف أو البائع ، وأنت تتسلّم منه المعاملة أو تسلّمه النقود :

" شكراً " فلا يرد عليك ... ويا ليته يقف عند هذا ، بل هو يمضي إلى أبعد من ذلك

فيرمي بالمعاملة أو بقية النقود في وجهك وكأنها منة يمنّ بها عليك ...

تبتسم بمودة في وجه هذا الموظف أو البائع أو ذلك ، فلا يبادلك الابتسام ، بل انه يمضي

إلى أبعد من ذلك فيقطب في وجهك وملامح الغضب والازدراء تكسو وجهه ...

تسلّم بحرارة على هذا الشاب أو تلك المجموعة من الشبان ، فيردّون عليك همساً من

أطراف أنوفهم ، وقد لا يردّون أساساً ، وأنت لا تريد سوى أن تسترجع تحيتك كما هي ، فلا

تحظى بما تريد ...

حياة متييسة لا تطاق ... ومشاعر نضب فيها كل ما هو عذب ورقيق ... ونفوس طغى
عليها الجفاء ... ووجوه لم تعد ترى فيها ذرة من حنان ...
ما هكذا أرادها لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ...
ومن عجب أن بعض هؤلاء الذين تتحدث عنهم يصلي ويصوم ولا تكاد تفوته صلاة في
مسجد ... فأين ذهب إذن تأثير صلاتهم وصيامهم في تهذيب نفوسهم ، وترقيق عواطفهم ،
وصياغة مفردات سلوكهم ؟
قد يقول البعض إن الزمن الصعب الذي اجتازه المسلمون عبر القرون أو العقود الأخيرة
بوجه الخصوص ، استأصل من نفوسهم الكثير ، واستلب من مفردات سلوكهم الكثير .. فقد
يكونون معذورين في تصرفاتهم تلك !
والردّ على هذا الادّعاء ليس صعباً أو عسير المنال ... فهذا هي ذي الشعوب الغربية
تجتاز عبر الحربين العالميتين الأولى والثانية متاعب وأهوالاً لا تقل عما ابتلينا به واجتزنناه ...
ولكنهم لم يفقدوا الكلمة الطيبة والبسمة الحانية وردّ التحية بأفضل منها ...
لا بل أن كلمة (آسف) تكاد لا تغادر شفاههم حتى وهم يتلقون أخطاء الآخرين ، وربما
تجاوزاتهم وعدوانهم ...

حول دور الأخلاق في النهوض والانهييار

على تغاير الأماكن والأزمان ، وتبدل الدول والحضارات ، تظل القيم الخلقية نقطة الارتكاز في مسيرة الأمم والشعوب. فبالتمسك بها يكون التقدم والصعود ، وبالتنازل عنها والتفقت منها يكون الانهيار والسقوط.

ولقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة بقوله سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (سورة الرعد ، الآية ١١) ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (سورة الأنفال ، الآية ٥٣) ووصف رسوله الكريم بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة القلم ، الآية ٤) ، مؤكداً بذلك على أن أحد العوامل الأساسية لنجاح الدعوة الإسلامية وتمكنها من تحقيق أهدافها الكبرى إنما كان بما تميز به نبينا العظيم (صلى الله عليه وسلم) من خلق عالٍ أريد لهذه الأمة قيادات وشعوبا أن تسير على هديه فيه لكي تكون سيدة في هذا العالم.

ولعل واحداً من أهم عوامل انهيارنا الحضاري عبر القرون الأخيرة ، هو ضعف ، وربما غياب ، الوازع الخلقى الذي هو أساس يقظة الضمير وفاعلية الأمة ، وقدرتها على العطاء والإبداع.

ومن قبل كان الشاعر المعروف (أحمد شوقي) قد جمع هذه المعاني في بيت من الشعر تتناقلته الأجيال بما انطوى عليه من معانٍ ودلالات :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

إن الكثيرين يذكرون - على سبيل المثال - كيف كان انهيار فرنسا السريع على يد القوات الألمانية في بداية الحرب العالمية الثانية ، بسبب من تفكك القيم الخلقية هناك.

ويذكرون - كذلك - كيف أن زعماء الدول الكبرى في ستينيات القرن الماضي من مثل (كندي) في أمريكا و(خروتشوف) في الاتحاد السوفياتي السابق ، حذروا شعوبهم من الانجراف وراء الملذات وتجاوز مطالب القيم الأخلاقية وأن ذلك قد يكون عاملاً ذا تأثير بالغ على مصائر الدولتين. ولقد جاءت الأحداث لكي تعزز مخاوف الرئيسين المذكورين.

إن الوقائع التي تؤكد دور الأخلاق في نهضة الأمم أو دمارها كثيرة ، وكتابات المفكرين ودعاة الإصلاح كثيرة هي الأخرى.

وقبل هذا وذاك تأكيدات كتاب الله سبحانه وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) على خطورة هذه المسألة.

إن القيم الخلقية هي التي تنظم سلوك الأفراد والجماعات ، وتضع مؤشراتته وضوابطه ، وتلعب دوراً كبيراً في حركة الأمم ونموها ، وأنه في حالة ضياع هذه القيم فستكون هناك الفوضى ، وسيعم الاضطراب سائر العلاقات ، فيكون التفكك والدمار .

إنها أشبه بعلامات المرور الكهربائية (الترافيك لايت) التي تنظم السير في شوارع المدن الكبرى ، وبالجاذبية التي تنظم حركة الكواكب والنجوم في ساحات الكون ، فلولا هذه وتلك لحدثت الفوضى والارتطام سواء في الشوارع والمدن ، أم في بنية الكون .

إن هناك قيماً كثيرة نعرفها جميعاً لأننا نتعامل معها سلباً وإيجاباً في كل يوم ، بل في كل دقيقة ، في بيوتنا ومدارسنا وأسواقنا ومؤسساتنا وعلاقاتنا كافة ، مثل الصدق والأمانة والوفاء والشجاعة والإخلاص والإحساس بالمسؤولية ويقظة الضمير والمروءة والإيثار واحترام الكبير والعطف على الصغير ومراعاة حقوق الجار وكفالة الفقراء والمستضعفين ، والجد في العمل والالتزام بالمواعيد وعدم نكث العهود والمحبة والتضحية ... الخ ...

لننتصر مجتمعاً من المجتمعات التزم بهذه القيم في حياته اليومية ، ونشاطه العملي ، كيف سيتقدم في مضمار الرقي الحضاري ، وكيف أنه بتخليه عنها سيتأخر بلا شك ، وسيدع المجال للأمم والجماعات الأكثر التزاماً بهذه القيم لكي تسبقه وتتفوق عليه .

وإذا نظرنا إلى التاريخ فاننا نستطيع أن نفسر انهيار وزوال الكثير من الدول والإمبراطوريات والحضارات بهذا العامل الأخلاقي تحديداً ...

حقاً إن الشاعر (أحمد شوقي) لخص ببيته ذاك الكثير مما يمكن أن يقال في علاقة منظومة القيم الخلقية بقوة الأمم وضعفها ، بارتفاعها وسقوطها على السواء ...

وهكذا يكون شعر الحكمة مدرسة يمكن أن نتعلم منها الكثير وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) القائل : (إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة) ...

الإنسان في قوته وضعفه

المنظور الإسلامي للإنسان يتميز بالواقعية ... إنه يتعامل معه في حالتي القوة والضعف ... ويؤكد وجود الحالتين معا في الكينونة البشرية ، فيدفع الأولى إلى المزيد من التألق ، ويأخذ بيد الثانية صوب الصحة والعافية.

منذ لحظات الخلق الأولى أضيفت نفخة الروح العلوية إلى كتلة الطين السفلية فأصبح الإنسان مزيجا من التوق والشد ... الصعود والهبوط ... التسامي والارتكاس ... اليقظة والغفلة ... والتحرر والاعتقال.

منذ لحظات الخلق الأولى شكّل الإنسان في أحسن تقويم ، وصدر الأمر للملائكة بالسجود له ، تشريفاً وتكريماً ، وحمل في البر والبحر ، ورزق من الطيبات ، وفضل على كثير من الخلق تفضيلاً ... وكان ينطوي في الوقت نفسه على العجلة والضعف والاستعداد للخطيئة ، والاستجابة لإغواء الشيطان.

منذ لحظات الخلق الأولى يُعلم آدم الأسماء كلها ... أي يعطى - بعبارة أخرى - مفاتيح المعرفة التي هي أساس الفعل الحضاري ، وهو - مع ذلك - يحمل الاستعداد للقتل وسفك الدم ، فيما توجست منه الملائكة خيفة.

والقرآن الكريم لا يبخل علينا بتسليط أضوائه الكاشفة على خفايا الإنسان ، ومكوناته ، ومنازعه ، وعناصر القوة والضعف فيه ، لأنه يتابع - بواقعية - ملامح وبصمات هذا الكائن الفريد الذي هو من خلق الله (سبحانه وتعالى) الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .
المذاهب الوضعية والأديان المحرفة تصعد بالإنسان إلى القمة أو تهوي به إلى الحضيض ، وهي في كلتا الحالتين تمارس انحيازاً غير مبرّر لهذا الاتجاه أو ذاك ، وتتجاوز الرؤية الوسطية والواقعية التي نلتقيها في كتاب الله ...

السوبرمان ، والجنّلمان ، والكائن الأعلى ، والإنسان المحاط بالخطيئة ، والإنسان حيوان اجتماعي ، وغيرها من التقاليع التي ضلّت الطريق ، وتعاملت مع هذا الكائن الفريد برؤية أحادية عاجزة عن الإحاطة بجوانب الكينونة البشرية كافة ...

اليهودية ترفع شعبها فوق مستوى البشرية بادعاء مبدأ (شعب الله المختار) ، والمسيحية تطوق الإنسان بالخطيئة الأبدية التي لا يخلصه منها - حسب ادعائها - سوى صلب السيد المسيح (عليه السلام) ... دون أن يبذل الإنسان من جهته أي جهد للخلاص ... والمذاهب الوضعية تؤله الإنسان حيناً ، وتسحقه حيناً آخر ... تغيبه في الجماعة حيناً ، وتمكنه من رقابها حيناً آخر ...

ومنذ اللحظات الأولى أعلن الإسلام في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ما ينطوي عليه الإنسان من قدرة على التسامي والصعود ، ومن انقياد للإغواء والشهوات ، وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (كل بني آدم خطاء وخير الخطاءين التوابون) ، وأعلن القرآن الكريم مراراً وتكراراً عن أن الإنسان هو أسير الآثام واللمم والأخطاء ... وأن باب التوبة مفتوح على مصراعيه لمن يقدر على تجاوز الشد والتهيؤ للصعود ...

إن الإسلام - بإيجاز شديد - دعوة للتغلب على العوائق ، وبذل الجهد لمجابهة عوامل الشد ... مع الاعتراف بثقلها ...

والإنسان في المنظور الإسلامي مشروع مفتوح للتحقق الذاتي عبر رحلة العمر المتطاولة ، والدائبة ، والطموحة ما بين محطات الإسلام والإيمان والتقوى والإحسان ... تلك المحطة القمة التي يملك فيها الإنسان مطلق إرادته في السيطرة على نوازعه وصياغة مصيره ... تماماً كما يريد الله ورسوله أن يكون ...

قائمة بالأعمال الكاملة للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل

وفق تصنيفها الموضوعي

أولاً : الأعمال التاريخية

محور : المنهج والفلسفة :

- ١- التفسير الإسلامي للتاريخ (٥ طبعات) (دار العلم للملايين - بيروت).
- ٢- حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٣- ابن خلدون إسلامياً (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٤- في التاريخ الإسلامي :فصول في المنهج والتحليل (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٥- المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارنة في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات) (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٦- دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية (بالاشتراك مع المهندس حسن الرزوي) (طبعة واحدة) (دار الرازي - عمان).
- ٧- المنظور التاريخي في فكر سيد قطب (طبعتان) (دار القلم - بيروت).
- ٨- التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي (قيد النشر).
- ٩- مدخل إلى التاريخ الإسلامي (التأصيل الإسلامي للتاريخ) (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي - الرباط).
- ١٠- مدخل إلى الحضارة الإسلامية (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي - الرباط).

محور : السيرة والتراجم :

- ١١- دراسة في السيرة (١٨ طبعة) (دار النفائس - بيروت).
- ١٢- كتابات معاصرة في السيرة النبوية (طبعة واحدة) (دار وائل - عمان).
- ١٣- ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٤- عماد الدين زنكي (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٥- نور الدين محمود : الرجل وتجربته الإسلامية (٣ طبعات) (دار القلم - بيروت).

محور : البحوث والدراسات :

- ١٦- دراسات تاريخية (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٧- المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي : عصر ولاية السلاجقة في الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٨- الإمارات الارتقية في الجزيرة والشام : أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة - بيروت).
- ١٩- الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين (طبعة واحدة) (دار الفكر - دمشق).
- ٢٠- خطوات في تراث الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢١- محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية (قيد النشر).

محور : قضايا في التاريخ المعاصر :

- ٢٢- ملامح مأساتنا في إفريقيا (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٣- لعبة اليمين واليسار (٥ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٤- أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٥- مقالات إسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٦- الرؤية الآن : في هموم فلسطين والعالم الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٧- أولى ملاحم القرن (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة - بيروت).
- ٢٨- مذكرات حول واقعة الحادي عشر من أيلول (طبعة واحدة) (دار الفكر - دمشق).
- ٢٩- أمريكا مرة أخرى (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

ثانياً : الأعمال الفكرية

محور : المنظور الإسلامي للمعرفة :

- ١- أصول تشكيل العقل المسلم (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) (٥ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢- مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٣- العلم في مواجهة المادية (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

- ٤- مدخل إلى إسلامية المعرفة (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
٥- تهافت العلمانية (٧ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

محور : المنظور الغربي للإسلام :

- ٦- قالوا عن الإسلام (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
٧- القرآن الكريم من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان - عمان).
٨- المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان - عمان).
٩- الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
١٠- نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم (طبعة واحدة) (دار النفائس - بيروت).
١١- غربيون يتحدثون عن الإسلام (طبعة واحدة) (دار السلام - القاهرة).

محور : البحوث والدراسات :

- ١٢- مع القرآن في عالمه الرحيب (٣ طبعات) (دار العلم للملايين - بيروت).
١٣- حوار في المعمار الكوني : وقضايا إسلامية معاصرة (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
١٤- رؤية إسلامية في قضايا معاصرة (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
١٥- مقال في العدل الاجتماعي (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
١٦- متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة (طبعة واحدة) (دار الحكمة - لندن).
١٧- كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس) (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
١٨- الله أو الطاغوت : مسائل أساسية في التصور الإسلامي (طبعة واحدة) (دار السلام - القاهرة).
١٩- رحلة في عالم الكتاب الإسلامي (قيد النشر).
٢٠- محاضرات إسلامية (قيد النشر).
٢١- أخطاء في حياتنا الإسلامية (قيد النشر).
٢٢- دراسات قرآنية (قيد النشر).

محور : المقالات الإسلامية :

- ٢٣- آفاق قرآنية (٣ طبعات) (دار العلم للملايين - بيروت).
- ٢٤- مؤشرات إسلامية في زمن السرعة (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٥- في الرؤية الإسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٦- في دائرة الضوء (طبعة واحدة) (دار السلام - القاهرة).
- ٢٧- من النافذة الإسلامية (طبعة واحدة) (دار السلام - القاهرة).
- ٢٨- العالم ينتظر البديل (قيد النشر).
- ٢٩- آيات قرآنية تطل على العصر (قيد النشر).
- ٣٠- أحاديث نبوية تطل على العصر (قيد النشر).

ثالثاً : الأعمال الأدبية

محور : الدراسات الأدبية والفنية :

- ١- الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢- فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٣- الفن والعقيدة (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٤- قراءة في كتابات النورسي : رؤية جمالية (الكلمات) (طبعة واحدة) (دار سوزلر - القاهرة).

محور : التنظير :

- ٥- في النقد الإسلامي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٦- مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٧- حول استراتيجية الأدب الإسلامي (الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي) (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٨- متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٩- من يوميات الأدب الإسلامي (قيد النشر).

محور : النقد التطبيقي :

- ١٠- محاولات جديدة في النقد الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١١- في النقد التطبيقي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٢- في النقد التطبيقي الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

محور : الإبداع :

المسرحيات :

- ١٣- المأسورون (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٤- الشمس والدنس (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٥- المغول (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٦- الهمّ الكبير (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٧- التحقيق (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٨- معجزة في الضفة الغربية (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٩- خمس مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٠- العبور (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

الروايات :

- ٢١- الاعصار والمئذنة (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٢- السيف والكلمة (طبعة واحدة) (المركز الثقافي العربي - الرباط).
- ٢٣- مذكرات جندي في جيش الرسول (صلى الله عليه وسلم) (طبعة واحدة) (دار وائل - عمان).

القصص :

- ٢٤- كلمة الله (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٥- رحلة الصعود التي لا نهاية لها (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

الشعر :

- ٢٦- جداول الحب واليقين (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
٢٧- ابتهالات في زمن الغربة (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

أدب الرحلات :

- ٢٨- من أدب الرحلات (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

أدب الحوار :

- ٢٩- ريبورتاج : حوار في الهموم الإسلامية (طبعة واحدة) (دار الحكمة - لندن).
٣٠- الطريق إلى فلسطين (طبعة واحدة) (دار وائل - عمان).
٣١- لقاءات صحفية (طبعة واحدة) (دار السلام - القاهرة).

السيرة الذاتية :

- ٣٢- السيرة الذاتية :
لا إله إلا أنت (سيرة ذاتية) (قيد النشر).
٣٣- من مذكرات طالب جامعي (قيد النشر).

الفهرست

- تقديم
- الدين الواحد
- مع الآخر
- النبي الإنسان
- في الاتيكيت النبوي
- ها هنا في ديننا يجد الإنسان من يحميه
- أداة الشيطان
- فهي عنده فوق العرش
- دين المحبة
- دين التيسير
- الكرم الإلهي
- دين التناصح
- الأسلوب المرن
- التوحيد ... ذلك التأسيس الكبير
- لا تكذبوا علي
- لتركين طبقةً عن طبق !!
- رفض للوثنية
- سمحاً إذا باع ... سمحاً إذا اشترى
- حرب على الظلم
- حتى في هذه يا رسول الله ؟
- حرب على التقليد الأعمى
- دعوة لتشغيل العقل المسلم
- فئات أربع
- حماية الطفولة
- هكذا يجب أن نكون ... وإلا
- أقصى درجات الوعي
- لعنة تبديل خلق الله
- حرب على الخرافة

- الموازنات الإلهية
- حرب على التزييف
- بين الحياة والموت
- الشیطان یضحك
- حرروا الظهور من السیاط
- الكلمة الطيبة صدقة
- رفض للتشدد والغلو
- المجتمع السعيد
- موقع وسط بين الغلو والتقصیر
- وثنية بالطول والعرض
- وقفه عند بوابة رمضان
- ضرورات الفقه الحضاري
- إنهم ینتحرون
- العولمة الثقافية وتحديات الشاشة الصغيرة
- قیم من خطبة الوداع
- وتأنس إليه وحوش العقاب
- واحدة فحسب من معجزات هذا الكتاب
- وأنت بعد في الدنيا؟!
- الله سبحانه واللدائن الرخوة
- حول معجزة الفتح
- نیرفانا لبعض المسلمين
- تعالوا نحسب
- أدوار ثلاثة
- من ثمار كتاب الله
- فرصة للخدم والعبيد
- الحياة ... والتعاليم
- الوجهان معاً
- التشیيع والرؤية الأخرى للحياة الدنيا
- ما الذي حدث ؟

حول دور الأخلاق في النهوض والانهيار

الإنسان في قوته وضعفه

قائمة بالأعمال الكاملة للمؤلف